نوبات جنوني

عنوان الكتـاب: نوبات جنوني
المـــوضـــــوع: روايـــة
التـأليـــــــف: سارة بكر
مراجعة لغوية: دعاء فرج
الإخـراج الفنى: محمود عنتر
تصميم الغـلاف: عبد الرحمن محمد
رقـــم الإيـداع: 3213 / 2021
الترقيم الدولى: 978- 977- 844- 210- 6
الناشـــــــر: منشورات الفنار

www.facebook.com/elfnaar
elfnaar@gmail.com

ڤيلا الأشراف- أمام بوابة هليوبوليس- مدينة بدر- القاهرة الكبرى
المدير العام / أ. مصطفى أمين

منشورات الفنار

01013483506
01550102499

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

نوبـات جنـوني

رواية

سـارة بكـر

إهـــداء

إلى مُعلمي الأول والأغلى، إلى الســند، الظهــر، الوطن، الجنة، الحب، التضحيــة، إلى الذي لن يــأتي مثله أحد، ولن يأخذ مكانــه أحد، إلى روح فارقت الحياة ولم تفارق قلبي وعقلي، إلى أبي.

د/بكر متولي عبد الظاهر

إلى رفيــق دربي ومنقذي، إلى مــن واجه معي الحياة والموت من قبل، إلى أكرم الرجال على الإطلاق. **وليد الحكيم.**

إلى عائلتي الصغيرة والكبيرة التي كانت ومازالت تشجعني وتدعمني.

عائلتي

إلى أمــي الثانية، أحن مخلوق على وجه الأرض، إلى التي تهتم بجميع تفاصيل حياتي أنا وأخوتي، أختي الكبرى. **د/أسماء بكر متولي**

إلى أصدقائي ورفقاء الدرب، إلى من يرسمون البهجة على الوجوه، أنكم من أفضل النعم إلى قلبي، حفظكم الله من كل شر.

منار، دينا، منه، مروة

إلى أروع مصور في الدنيا، صديقي وأخي الصغير ومن وقف إلى جواري في أمور كثيرة من أجل تحقيق الحلم. **تامر عثمان**

إلى الدكتــور الهادئ المثقف، صديق الدرب، الــذي وقف إلى جواري وقت مرضي. **د/حسام زهران**

إلى الدكتور الذي يتمتع بخفه الظل ولا يقول لا أبدًا في مساعده الغير صديقي وأفتخر. **د/ أحمد صلاح الرفاعي**

إلى الدكتورة الجميلة المجتهدة القريبة من القلب. **د/مريم نبيل**

إلى جامعتــي العزيــزة التــي أعمل بهــا، إلى المكان الــذي يدعمني ويشــجعني على النجاح، وإلى رفقاء العمل الأحباء الذي بهم يهون ضغط العمل. جامعة دراية.

القائد العظيم الأب الروحي، معلم الأجيال، ومعلم الحياة

أ.د/عماد حمدي غز

إلى القراء الأعزاء، أنتم الكنز الحقيقي

إليكم جميعًا أهدي هذا العمل، أدامكم الله في حياتي

الفصل الأول

(الحياة جميلة جدًا ببساطتها لا تعقدوها كي لا تصبح غير محتملة)

✍ «سـارة»

أتذكر هذا اليوم وكأنه حدث أمس، وكأن الذاكرة قد رفضت أن تمحو هذا اليوم، أو ربما لأن حياتي القادمة ترتبت على هذا اليوم.

أتذكر أنه كان مشرقًا والشـمس كانت سـاطعة بجنـون، ونطاق من الأشـعة الغاشـية للعيون تلقي بخيوط صفراء جميلة وانعكاسـات على المياه الرائعة التي تمتد أمامي، والطيور لاتزال تصدح، والفراشـات لاتزال تطير، والسـماء من غير غيوم، حيث كانت صافية لدرجة عجيبة، وزرقاء مائية اللون ويظهر النيل بألوانه الخضراء والزرقاء، وصوت هدير، ورائحة زكية، أني على يقين أنه سوف يكون يومًا مختلفًا، كان عمري في ذلك اليوم اثنـا عشر عامًا، خرجت من غرفتـي على صوت ضوضاء خفيفة وجميلة، أنها ضوضاء الكبار في أثناء تحركهم في البيت.

كنت أعلم أن أبي اليوم سـوف يذهب إلى عمله؛ ولكن هذا اليوم كان مختلفًا، أنه حفل تتويج الحاكم، الذي كان صغيرًا في السن حيث يساويني في العمر أو يكبرني قليلًا.

كنـت أتمنى رؤية هذا الحفل وقد طلبـت بالفعل من أبي ليلة أمس الذهاب معه، ولكنه رفض رفضًا شديدًا، وقال لي:

- أنه عمل بالنسبة لي وليس احتفالًا بالمعنى الذي تتخيلينه.

فنظرت إليه وفي عيني غضب وحزن، وهو يرتدي ثيابه بعناية واهتمام،

وأمي تساعده لكي يكون مظهرُه جيدًا فنظر بطرف عينيه وقال:

- أمامك خمس عشرة دقيقة لتكوني في أتم الاستعداد لكي نذهب إلى الحفل معًا.

- آه! أحقًا يا أبي أأنت جاد فيما تقول؟!

- أنا لا أمزح، ويبدو أنك لا تودين الذهاب إذًا.

- لا لا لا سوف أذهب حالًا.

وقبل أن أخرج من الغرفة وقلبي الصغير مليء بالسعادة وحماس الشباب الذي لا يعرف معنى الخطر، ذهبت إلى أبي وقبلت يداه فوضعهما على وجنتيّ وقال:

- أنتِ حياتي، أنكِ أملي يا ابنتي، ولا أستطيع أن أراكِ حزينة مهما كلفني الأمر.

هاتين اليدين الحانيتين تبثان اطمئنانًا وحبًا، اعتدت عليهما طيلة حياتي، بل كنت أعشقهما، قفزت من مكاني لأرتدي ثيابي وذهبنا للحفل.

ونحن في الطريق قال أبي:

- ابنتي الغالية لن تدخلي معي من نفس الباب، ستشاهدين الحفل من وراء النافذة، ولا تقلقي ستكون معك خادمة من خادمات القصر تدعى «فاطمة» وهي تتمتع بقلب طيب ستهتم بكِ إلى أن نلتقي بعد الحفل، أرجو منكِ أن تكوني مطيعة وفي غاية الأدب.

دخلنا القصر ولكن من باب موجــود بالخلف، أبي تركني في الحديقة ودخل للقصر، وبعد ربع ســاعة تقريبًا، عاد ومعه فاطمة الخادمة، كانت جميلــة بحق لها جاذبية رائعــة، لما رأتني قالت لي: «مرحبا يا ســارة أنا فاطمة، سوف نستمتع بالوقت معًا أنا متأكدة».

نظرت لها فكم كانــت ودودة إلى حد غير طبيعي، جاوبتها وأنا أنظر إليها بامتنان: أني متشوقة لرؤيته، أريد أن أرى أصغر حاكم سمعت عنه كثيراً.

أصوات أبواق وطبول تبدد سكون المكان، قال أبي وهو متحفز لكي يغادر - سأترككم لكي لا أتأخر على العمل.

ودعت أبي ومشــيت خلف فاطمة التي كأنت بدورها تســترق النظر يمينًا ويســارًا لــكي لا يرانا أحد، وصلنــا إلى حجرة المــؤن، وكانت في قبو القصر، وكانت هناك نافذة صغيرة موجودة أعلى الحائط، أشــارت فاطمة بأصابعها إلى النافذة وقالت:

من خلال هذه النافذة ممكن رؤية الحفلة، ولكن ســنحتاج أن نضع بعض البراميل فوق بعضها؛ لكي تصعدي وتشــاهدي الحفل، وبعد بعض الترتيبات حملتني فاطمة ووضعتني أعلى البراميل.

وودعتنــي لكي تذهب إلى الحفل؛ لكي لا تعاقب من رئيســة الخدم، وأكــدت لي أنها عندما تصل ســتقوم بتحريك الســتائر قليــلًا بعيدًا عن النافذة؛ لكي يمكنني المشاهدة، حيث كانت الستائر داخل القاعة.

وكانت الرؤية واضحة جدًا، لقد كشفت النافذة لي الإيوان الكبير كله، وجزءً صغيرًا من الحديقة، وأيضًا مدخل هذه القاعة الكبيرة.

كنت أعلم من أبي أن الحاكم سوف يخرج من داره ممتطيًا جواده إلى الإيوان الكبير، وهو عبارة عن قاعة كبيرة تتميز بأنها ذات أعمدة شاهقة موجــودة داخل الإيوان الكبير؛ لكي تقام به رســوم القصر، وقد نُصب له فيهــا عرش الخلافة، لقــد رأيته من النافذة فكــم كان جميلًا بحق، وهو عبارة عن تخت مرتفع من الذهب وفوقة مرتبة مذهبة أيضًا.

دخــل القاعة الأن، كان يرتدي رداءً من اللون الأبيض، وقد كنت أعلم أنه ســيرتدي هذا اللــون -فأنا أعلم أنه المفضل لــدى الخلفاء الفاطميين حيث يتميزون به، فهو ضد اللون الأسود المفضل لدى أعدائهم العباسيين- وكان يضع على رأســه التــاج الشرقي، وهو عبارة عن عمامة مشــدودة ومرصعة بجوهرة في المقدمة -كانت تسمي التميمة- حولها جواهر أصغر من الياقوت الأحمر.

وعندمــا دخل من الباب قبل كل الحاضرين من رجال الدولة، ومنهم أبي وأيضًــا أفــراد أسرته الأرض ومشــوا بين يديــه إلى أن وصل إلى عرش الخلافة، فوقف من له رســم الوقوف وكان أبي منهم، وجلس من له حق الجلوس، فبايعه الجميع وذلك عن طريق ذكر عبارات الاعتراف بإمامته.

كنت أنظر له من بعيد وأنا مندهشة، حائرة ومعجبة من هذا الطفل

أو الرجــل الصغير الذي يعتلي العرش، ولســت أنا فقط من كان ينظر له وهو مشدوه.

كانت هناك سيدة في مظهرها عظيمة وقوية وصلبة وصارمة، لكن في نظراتهــا خوف وحب وفخر، كأنت تنظــر له كأنه تمثال، هي من صنعته وتوُجته وجعلتهُ إمامًا أو خليفة، كنت أظنها أمه، ولكني علمت فيما بعد أنها أخُته -هي ليست أخُت الحاكم الشقيقة، ولكنها أخته من الأب فقط، وأمها نصرانية وتكبره بثمانية عشر عامًا- أنها «ست المُلك».

✍ **الحاكم بأمر الله**

أنا أبغض هذه الاحتفالات والطقوس، أني دائمًا أشــعر أنها من مظاهر البــزخ والثراء والتبذير وليس لها أي قيمــة، اكتفيت من التمثيل في هذه الحفلــة الكبيرة التــي تُدعى الدنيا بأسرهــا، وهذه العمامــة أيضًا التي بدأت تجعلني أشــعر بألم في رأسي، لقد بدأت أشــعر بالاختناق من هذه الاحتفــالات التافهة، وبمجرد أن انتهــت المبايعة كنت أريد أن أذهب، لا أســتطيع أن أحتمل أكثر من هذا، ولكن ماذا أفعل لو طلبت مني «ست المُلك» أن أغادر عندما ينتهي هذا الاحتفال.

نظرت لها وأشرت بيدي لكي تقترب مني فاقتربت وانحنت لكي تستمع إلي، تحدثت إليها وأنا أنظر وأبتسم للجميع؛ لكي لا يشعر أحد أني أستأذن للانصراف.

- أريد أن أنصرف.

- لا يجوز، هذا حفل التتويج.

- انتهت المبايعة، وأنا أريد أن أنصرف.

- لا يجوز، لا تبدأ بحركات الأطفال هذه.

وعندما ردت هذا الرد لم أشــعر بنفسي إلا وأنــا أنظر إلى عينيها؛ لكي أخبرها بطريقة صارمة وهادئة في ذات الوقت، أني لست طفلًا، فقلت لها:

- أنتِ تعلمين أني لســت طفلًا، الأطفــال لا تحمل والدها بعد الموت وتأتي به إلى داره، وتقف على غســله وجنازته، الأطفال تتشرد وتموت بعد وفاة الأب، تذكري هذا جيدًا ولا تتعاملي معي هكذا مرة أخرى.

قالت وهي تنظر للجميع وتبتسم:

- كفــى لقد فهمت إذا رغبت في الانصراف، انتظر إلى أن يبدأ الجميع في تنــاول الطعــام، وانصرف على ألا تتأخر وتعود إلى هنا قبل أن يشــعر الحضور بغيابك.

- سأفعل

بعد نصف ساعة من هذا الوقت المهدر، بدأ الجميع في تناول الطعام، نظرت إلى «ســت المُلك» حيث أومأت برأســها، أدركت أن وقت انصرافي قد حان.

أخــيرًا، لا أصدق أني خرجت من هذا الهراء والإزعاج حيًا أُرزق، ولكن مازال هناك هم خلفي فنظرت إلى الخلف وأمرت الحراس أن ينصرفوا.

ســوف أذهب لكي أرى «عمار» لقد اشتقت إليه كثيرًا، من المؤكد أنه مع أمه في المطبخ، وبينما أنا أتوجه إليه رأيت الحجرة التي بجوار المطبخ التــي بها المؤن والخزين مفتوحــة، وكنت أنا وعمار نختبئ بها عندما كنا صغارًا، رأيت بابها مواربًا قليلًا.

ونظرت عبر فتحة الباب ووجدت طفلة في عمر الحادية عشرة تقريبًا، تصعــد فوق برميلين كبيريــن، وتنظر من نافذة التهويــة الموجودة أعلى الغرفة التي تطل على قاعة الإيوان الكبير.

اقتربــت بخطوات بطيئة في اتجاه الفتــاة، وعندما أصبحت بجوارها، قلت لها بصوت منخفض:

- ماذا يفعلون الآن؟ وماذا يفعل الحاكم؟

ردت سارة بدون أن تتطلع إلى من يحدثها وقالت:

- لا أرى المنصور، تُرى أين؟

لم تكمــل حديثها ونظرت للأســفل، فوجدتني أنظــر لها وعلى فمي ابتسامة، للحظة لم تدرك أنه أنا المنصور، فعادت ونظرت إلى النافذة على عرش الحاكم ثم نظرت لي مرة أخرى.

فشعرت أن جسدها ينتفض من الذعر، وابتسمت ابتسامة مصطنعة

ورجعت بخطوات للخلف فكادت أن تسقط، فأسرعت إليها وحملتها بين ذراعي ونظرت إلى عينيهـا، وحدثت نفسي»يا إلهي ما هذا؟! أنها كالبدر في تمامه»، شـعرت كأن هناك حلم يطل عليّ من السـماء في ليلة مباركة، أو أنها أميرة من أميرات القصص القديمة، التي يتسـارع فيها كل الفرسان والمردة والجان والملوك والأمراء على اكتساب قلبها، فكانت ناصعة البياض ذات بـشرة صافية كالأطفال، وشـفتاها مكتنزتان وعيونهـا آسرتان، فلا يستطيع أحد أن يبعد نظره عنهم.

قلت لها وأنا مازالت أحملها بين ذراعي:

- احترسي كِدتِ أن تسقَّطي

وأكملت في نفسي، ولكن يا أميرتي لقد سقط قلبي من بين ضلوعي في بحر هواك، عندما التقت عيني بعينك.

مرت دقائق وأنا أحملها، وهي بين يديّ خائفة ومشدوهة ومضطربة، وأنا أنظر إليها وهي تنظر إلي، وفاقت من غفلتها وقالت لي وهي تجاهد من أجل أن يخرج الكلام من بين شفتيها، كأنه طفل حديث الولادة متردد بشدة في الخروج من أمان الرحم الدافئ لأمه الحبيبة:

- أنزلني

وقلت لها وأنا أشعر بالإحراج: معذرة، لم أقصد.

وأنزلتها من على الأرض، فرتبت ثيابها، واعتدلت في وقفتها، وأنا أحاول

أن أتماسك أمامها، ولا أنظر إليها، ولكن دون جدوى قلت لها:

- ما اسمك؟

- سارة

- وماذا كنتِ تفعلين؟

تلعثمت وقالت: لقد كنت...، أقصد...، أريد أن أنظر...

نظــرت إليها بعيني يملأها الحنان، وقلت لها -وأنا أضمها- «لا عليكِ، لــن أفعل شــيئًا، أنا فقــط أريد معرفة لمــاذا أنتِ هنا؟ ومــاذا تفعلين؟ وإذا كنتِ تريدين أن تشــاهدي الحفل فهنــاك مكان أحلى من هذا لكي تشاهدينه، وأيضًا لن يراك أحدًا».

ضحكت على استحياء وقالت له:

- أنا لم أكن أشــاهد الحفل، ولكني كنت أشــاهدك، أنت أصغر حاكم رأيته في حياتي.

فضحكت من قلبي وتسارعت دقات قلبي وقلت:

- وما رأيك فيّ، هل أستطيع أن أكون الخليفة أم لا؟

وقبل أن تجاوب سمعت ضوضاء في الخارج وقلت لها:

- سأذهب على أن أراكِ، هل تعرفين الأرجوحة التي بطريق المقطم؟

- نعم أنها قريبة من دارنا.

- عظيم، أني كل يوم أذهب إلى هناك عندما تبدأ الشمس في الاستيقاظ،

إذا كنتِ تودين رؤيتي مرة أخرى فلتأتي، أتمنى من قلبي أن تأتي.
وذهبت ولكن ليس كما جئت، وأعتقد أنها أيضًا لم تعد كما كانت.

ست المُلك

أيــن ذهب هذا الولــد الأخرق؟! ألم أحــذره ألا يتأخر؟ حتى «يامن» حارســه الخــاص هنا لم يأخذه معه، أن الأعــداء في كل مكان هنا وهناك وهــو لا يــدري حجم الأخطار التــي تهدد حياته، وبينــما أنا أبحث عنه وجدت «أرجوان» يقف عن بعد، فأشرت له أن يأتي.

- يا أرجوان أين المنصور؟

- لا أعلم يا مــولاتي ولكن من المؤكد أنه في الحديقة، لا تضيقي عليه اللجــام، كل الأحــداث التي تمر به أكبر من طاقته عــلى التحمل، رجاءً يا مولاتي لا تحاصريه، دعيه يثق بنفسه.

- ليتــك كنت أطعتني فيــما أمرتك به، وجعلت ابن عمي «عبد الله» هــو الخليفة الجديد بــدلًا من هذا الطفل، لقد ضربــت بأوامري عرض الحائط بل وذهبت بالمناداة بمبايعة الحاكم.

- مولاتي أن عبد الله ليس أفضل من المنصور، هذا الطفل عقله أرجح من عبد الله، ولكن أنتِ يا مولاتي نفسك تميلين إلى عبد الله.

وسأخبرك بحقيقة يا مولاتي:

- أني أعلــم أنكِ لا تحبيه هذا ليس حبًا، وأســمحي لي فيما أقول أنتِ

تحبين نفسك، أنتِ غاضبة لنفسك وليس عليه، أنكِ ما أحببته ولا أحببتِ أحدًا، أنتِ لا تحبي إلا نفسك وسلطانك على الرجال.

تريديه أن يكون خاتم في أصبعك، وبالتالي ستكون السلطة بالكامل لكي، وعمومًا هذا أمر لا يخصني بالمرة، أني أنفذ أوامر مولاي العزيز -رحمه الله عليه-.

- هذا على أساس أن المنصور وهو الخليفة لن أكون متحكمة في زمام الأمور، في الحالتين يا أرجوان سأكون المتحكمة في زمام الأمور، ولكني أخشى من تهور وطيش الحاكم فهو مازال طفلًا، لا يمكن السيطرة عليه بالكامل بخلاف عبد الله، ثم هل تعتقد حقًا أني أكره أخي، أنا فقط أرى أن الأوان لم يحن بعد.

- مولاتي أن...

وبينما وهو يحاول أن يفكر ماذا يقول، رأينا المنصور قادمًا من إحدى طرقات القصر ووراءه الحراس ويتوجه إلينا أنا وأرجوان.

عندما رأيته أخذت نفسًا عميقًا، لقد اطمأننت عليه، وعدنا إلى الحفل، ولم أشأ أن أعاتبه حتى لا يتضجر مني.

بعد الانتهاء من الحفل لم أكن أريد أن أذهب إلى القصر الملكي، كنت أريد أن أذهب إلى قصري أنا، ولكني كنت أريد أن أحسن من مزاجي قليلًا، وخصوصًا بعد حديثي مع أرجوان هذا المتغطرس الذي يتدخل

فيما لا يعنيه، ويقول لي لا تحبي عبد الله، أعلم أني لا أحبه، فهو لم يضف جديد، عكر البحر ولم يصطاد سمكًا.

وأثنـاء خروجي من القصر بعدما ودعت الحاكـم على أن القاه غدًا، رأيـت عبد الله وأخبرته أني سـأذهب إلى داره سرًا الليلة، لكي نقضي معًا ليلة مثيرة.

وذهبت وتمتعت ومتعته، كنت أشـفق على عبد الله كثيرًا، فأنا أعلم أنه يعشـقني، وأنـا لا أحبه ولكن أحب حبه لي، أحـب ضعفه بين يدي، أستمتع بمغازلاته لي.

عندمـا أكون بين ذراعيه أشـعر أنه يريـد أن يلتهمني، يلتصق بي ولا يريد إفلاتي، وأنا أستمتع منه بكل شيء: أنفاسه، حديثه، ورجولته وإثارته أيضًا.

وبعد أن انتهيت منه بدلت ثيابي وعدت إلى قصري.

سـارة

عندما عدت إلى البيت بعد ما سلمتني فاطمة إلى والدي الذي شكرها بدوره، ظل أبي طـوال الطريق، وهو يحدثني عن المنصور، وبالتأكيد عن والده العزيز، أبي كان دائمًا يتفاءل بحكم الفاطميين لمصر، كان دائمًا يتذكر حديث جدي عن العباسـيين وعن آخر عهدهم في مصر، حيث تدهورت البلاد وانتشرت المجاعات والسرقات، لذلك كانوا ينتظرون الخلاص بفارغ الصبر، والذي جاء على يد الفاطميين.

عندما دخلت إلى البيت أدركت أن سـارة التي خرجت ليسـت التي عادت، وعندما كنت على فراشي، وبدأت عيناي في استقبال النوم، تذكرته عندما رفعنـي من على البراميل، لقد أدهشـتني رجولته التي تفوح من جسـده القوي، ونظراته وحديثه الطيب، لقد كان جذابًا ومثيرًا ومدهشًا، كان قلبي يحدثني أن حياتي بأكملها سـتدور حول هذا المنصور، يا ليتني أسـتطيع أن أراه مرة أخرى، هل ستكون لدي الشجاعة لكي أراه غدًا كما اتفقنا، لم أسـتطع أن أحسـم أمـري، إذا كنت سـأذهب أم لا، ولكني لم أستطع أن أشغل عقلي بشيء غيره، وبعدها غفوت علي أحلام ملكية.

وكانـت لدي عـادة صباحية، بما أنني الابنة الوحيـدة في هذا البيت، لذلك كنت أقوم بعمل الرجال والنساء، فكنت أنقل الماء من مجرى النيل في ثلاثة أوعية كبيرة إلى بيتنا، وكان هذا الماء يكفينا طوال اليوم.

واســتيقظت في هذا اليــوم مبكرًا عن كل يوم، كأني حســمت قراري بالنســبة لرؤية الحاكم، كنت أود أن أراه، أريد أن أتحدث معه، أتمنى أن ينظر في عينيّ مرة أخرى.

كان عــليّ أن أذهب قبل أن يســتيقظ أبي ليذهــب إلى العمل، ولكن عليّ الآتي:

أن أملأ جالونًا واحدًا من الماء وأتركه في البيت، حتى عندما يستيقظون ولا يجدوني ويجدون جالون الماء يدركوا أني أقوم بملء الثاني.

ثــم أملأ جالون أخــر، وأضعه في مكان بالقرب مــن البيت، ولكن في الخفاء، حتى عندما أعود إلى البيت بعد انتهاء لقائي بالحاكم يكون معي.

قمــت بهــذا المجهود في أقل من نصف ســاعة تقريبًا، مــع العلم أن الأمر يأخذ في الطبيعي ساعة ونصف، بدلت ثيابي واتجهت إلى الأرجوحة وقلبي يخفق بشــدة، كأنه ســيخرج من صدري، وقبل أن أصل رأيته من على مسافة ليست ببعيدة، مغمض العينين ويتأرجح بهدوء.

وعلى مقربة منه بخطوات شعر بي وقال:

- كنت متأكدًا أنكِ ستأتي.

- لم أكن سآتي.

فتح عينيه وقال: وهل كنت أهون عليكِ.

- تهون أو لا تهون لا يفرق بالنسبة إلي، أنا جئت إلى هنا مجرد فضول لا غير.

- يمكنك أن تنصرفي إذا كنتِ قادمة رغم عنكِ.

فاجأني رد فعله كثيرًا، فقلت له وأنا رافعة رأسي لأعلى:

- أنا لا أفعل شيئًا رغم أنفي.

نظر إلى عيني كثيرًا وابتسم واقترب وقال بصوت يملأه الإحساس:

- أتعلمين أنكِ تجعلينني أشعر بسعادة لم أشعر بلذتها من قبل، أتعلمين أمرًا؟ أشعر أنكِ هدية من الله لي في سنين عمري العجاف.

شعرت أن يديّ ترتجف ودقات قلبي تزداد، وطرقت رأسي لأسفل وأنا في قمة خجلي، فابتسم وقال:

- لا أريد أن أجعلك تتوترين، كنتِ أخبرتني عندما أتيتِ أنكِ لا تصدقين أن هناك خليفة صغير في السن مثلي، هل أصلح أن أكون خليفة في نظرك أم لا؟

- من الممكن أو المؤكد أنك تصلح لذلك.

- ممكن ومؤكد في نفس الجملة، هناك فرق كبير بين الكلمتين، الممكن هو الاحتمال أي نعم أو لا، فإذا كان نعم أنتقل من الاحتمال إلى الترجيح ثم من الترجيح إلى آخر مرحلة وهي التوكيد.

- ما كل هذا هون على نفسك، هل أنت تأخذ كل الأمور بهذه الجدية؟! أنها مجرد هفوة في كلمة في جملة، لن تزيد من كونك خليفة أو تنقص.

- أبالغ أنا أليس كذلك؟! سأخبرك بسر.

- من أول مرة

- بل من أول نظرة، وأنا لا أبالغ هذه المرة

خجلت من كلامه، وابتسمت وأكملت

- أخبرني

- أني أشــعر أني أريد أن أحكي لكِ كل شيء عن حياتي، لا ليست حياتي فقط بل حتــى عن الصراعات التي تحدث بداخــل نفسي، بعدما تركني أبي ورحل، وأنا أشــعر أن لدي نوبات جنون لا أعرف مصدرها أو ســببها، أوقات أشــعر أنها بسبب المسئولية، وأوقات أشعر أنها بسبب الخوف، لا أعلم ولكن عندي أمل أنها ستنتهي.

- رحمه الله علي أبيك، وبإذن الله يجعلك الله خير خلف لخير سلف، أنا تأخرت كثيرًا، اعذرني يا مولاي، هل أغادر؟

- سارة، أنا المنصور وليس مسموحًا بوجود ألقاب بيننا، أريد أن أشعر معك كأنني إنسان عادي.

- أمرك.

- وأيضًا لا وجــود لكلمة أمرك اتفقنا، ما تريدي أن تفعلينه وتقولينه افعليه ولا تقلقي من شيء، اتفقنا؟

- اتفقنا.

- هل يمكن أن أطلب منك طلبًا أو اعتبريه رجاءً؟

- تفضل!

- من وقت أن رأيتك وأنا أشــعر أن هناك شــيئًا في حياتي ســعيدًا، أو لنقل إني طائرًا من عــلى الأرض، هل تعديني أن تكوني بجواري وبجانبي عندما أحتاجك؟

- وإذا احتجتك أنا؟

- هذا سيكون بالنسبة إلى عطف وإحسان يا أميرتي.

شعرت بالخجل الشديد فأطرقت رأسي لأسفل، وقلت:

- عليّ إذن بالذهاب.

- سأشتاق إليكِ كثيرًا.

- أنا أيضًا.

وغادرت وأنا من سعادتي، أود أن أمسك الشمس بيدي، ولكني أسرعت وعــدت إلى البيت بعد ما أخذت الجالون الثاني وعدت إلى البيت، وكانوا قد استيقظوا ولكنهم لم يشعروا بشيء.

وانقضى النهار في سرحة شــاردة، ولكن قبل غروب الشــمس تذكرت بتول وريحانة أصدقائي، لقد فات أكثر من يومين على رؤيتهما، بدلت ثيابي وغادرت المنزل؛ لكي أتوجه علي بيت بتول.

وفي منزلهــا وبعد الكثير من الســلامات والعتــاب، قمنا بالذهاب إلى

بيــت ريحانة فهــي صديقتنا الوحيدة المتزوجة ولديهــا طفلان وبعد أن تجمعنا، شعرت أن القلوب تريد التحدث أكثر من المزاح والعتاب، شعرت أن ريحانة لديها الكثير لتقوله، لذلك بدأت بسؤال ريحانة:

- أشعر بشيء مختلف فيكِ، ما الأمر؟ هل الأمر يخص هذا المدعو موسى؟

بتول وريحانه كانوا يتبادلان النظرات إلى بعضهما، وبدأت ريحانة بالحديث.

- أعلم أنكِ لا تشعرين بما أشعر به، ولا أحد يشعر بي غير بتول، لأنها أحبت من قبل، إن الحب أقوى منا يا ســارة، ولا أســتطيع أن أمنع نفسي من حب موسى.

- مــاذا فعلتِ؟ واســتمري في الحديث، أرجــوكِ ولا تتوقفي؟ وبماذا وافقتك بتول في المصائب التي تجلبينها إلى حياتك؟

- سأطلب الطلاق من مصطفى.

- عظيم، ثم ماذا؟! تهدمين حياتك الزوجية ومستقبل طفلين من أجل علاقة حب متهورة غير جاده؟!

في هذه اللحظة لم تجب ريحانة على حديثي بل أجابت بتول:

- سارة من أخبرك أنها علاقة حب غير جادة؟ ليس على الحب سلطان، وبــدلا من خيانة زوجها وهي لم تفعل ولــن تفعل، لذلك تطلب الطلاق منه وتتزوج موسى.

- ولكن مصطفى يعشق ريحانة!

- وماذا إذا قرر مصطفى أن يتزوج في يومًا ما، أحب امرأة أخرى وقرر أن يتزوجها، هل ستخبرينه أن ريحانة تحبه وألا يتركها؟! لما للرجال الحق أن يدمروا قلوب النســاء إذا عشقوا وعلى المرأة أن ترضى وتعيش، وليس من حق النســاء إذا أحبــت أن تترك زوجها وتتزوج مــن تحبه، لما لا؟ ما الحرام في ذلك؟ أحبت تنفصل وتتزوج من تحب وانتهت القصة.

- أتعلمين حجم الخسارة التي ستتحملها؟

- لــن تكون في خســارة وجــع القلب وغضب الرب، هــي لو لم تترك مصطفى ستغضُب ربها لأنها تحبه، لا سبيل للنقاش.

وبعــد كثير مــن الجدال والنقــاش، بين حديث غايــة في الأهمية إلى حديث آخر غاية في التفاهة.

وشــعرت أن لا حاجــة لي للحديث عن الحاكــم، أن مقامه أعلى من هــذا العبث، ومرت الأيام يوم بعد يوم وتم إعلان بيعة الخليفة الجديد، وأصبحوا يدعون له على المنابر في الصلاة يوم الجمعة، ونقش اســمه على قطع النقود، وقد لقب بألقاب كثيرة منها أمير المؤمنين والحاكم بأمر الله، وكل هذه الأحداث العظيمة تمر به، وهو لم يتخلف مرة واحدة عن موعدنا.

✍ أوضــاع البــلاد

كان للفاطميين الكثير من العادات والتقاليد التي يمارسونها من حين إلى آخر في مصر ومن هذه العادات:

- عيــد يدعي «غدير خم»: وهو اليوم الذي أوصى فيه النبي بالخلافة مــن بعده لعلي، وكانــوا يحتفلون بهذا العيــد في القاهرة، فيخرج موكب رسمي من قصر الخليفة إلى مكان يطلق عليه الإيوان الكبير، ويقومون بذبح الكثير من الأضاحي.
- كانوا يحتفلون بيوم ذكرى مقتل الحســين بن علي، ففي هذا اليوم تعطل الأســواق وتغلق الدكاكين وأبواب الدور، ويخرج موكب كبير إلى جامــع الأزهر، ويوزع في هذا اليوم ســماط الحزن -يتكون من العدس الأســود والخبز المغــبر لونه- والأجبــان والمخللات والألبان وعسل النحل الأسود.
- كان للفاطميين محاولات دءوبة من أجل نشر عقائدهم بين المصريين.
- لما جاء المعز مصر ألغى الاحتفال بأعياد أهل الذمة، وألغى الاحتفال بالغطاس والنيروز.
- أما العزيز فتجوز ســيدة مســيحية، وأنجب منها ست الملك أخت الحاكم، وأعاد الاحتفال بالأعياد مرة أخرى، كما ســمح للمســلمين بمشاركتهم الاحتفال.

- عــين العزيــز أخّ زوجتــه في أعــلى المناصــب في الكنيســة، فعين (أريستوس) بطريركا علي بيت المقدس، والآخر (أرسانيوس) بطريركا على القاهرة ومصر.
- الشيعة عمومًا تعتقد أن الإمامة أو الخلافة منصب إلهي مثل النبوة، فكما أن الله يختار من يشــاء من عباده للرســالة، كذلك يختار من يشــاء للإمامة، والنبي يوحى له لكن الإمام يتلقى التسديد الإلهي، فبالنسبة لهم أن الأمام معصوم من الكبائر والصغائر.

الفصل الثاني

(شيء جميل أن تكون قريبًا من شخص محتفظ بك، لا يبتسم لغيرك ولا يعطي ربع مكانتك لأي شخص آخر)

✍ الحاكم

عندما أتذكر هــذا اليوم يتمزق قلبي ألمًا على فراقك يا والدي العزيز الغالي، أني أتذكر اليوم بكل تفاصيله كأنه حدث أمس، كان يوم الثلاثاء ٧٢ رمضان ٦٨٣ هجري، كنت بصحبه أبي في مدينة بلبيس، كان والدي العزيز يســتعد للخروج إلى جهــاد اليونان (الروم)، ولكــن كانت حالته الصحية ســيئة، وكل يوم يمر حالته الصحية تســوء أكثر إلى أن جــاء يوم الثلاثاء، واستدعاني لطلب رؤيتي.

دخلت إلى الخيمة المتواجد بها واقتربت من فراش أبي، فشعر بي وفتح عينيه، وقال بصوت يعتليه التعب:

- ابني الحبيب أني على مشــارف الموت، لذلــك أريدك أن تكون قويًا وعــادلًا وحكيمًا، أنك الخليفة القادم، اجعل هدفك الأهم مصلحة الدولة الفاطميــة، أنت التاريخ، كل تصرف ســوف تفعله ســيكتب في التاريخ، لذلك يا بني يجب أن تكون قدوة صالحة لأهل بيتك وخدمك وحراســك ومرءوسيك وشعبك.

كدت أبكي من أثر حديثة، فنظر لي نظرة صارمة وأردف:

- ويحــك! إيــاك أن تبكي الرجال لا تبكي على فــراق الأحباب، الرجال تبكي فقط وهم بين يد الله غير ذلك لا تبكي، وأن حدث لا تدع أحدًا يرى هذه الدموع الغالية، من يعيش النهار يا بني يجب أن يعيش الليل.

آه يا أبي، اشــتقت إليك يا غالي، كم أريد أن أســند ظهري إليك، لقد أصبحــت كالبيت بدون جــدران، أني في بعض الأحيان أندهش من نفسي فيــما فعلت، عندما فارقت الحياة، لقد حملته ووضعته علي حصاني بعد مــا ارتديت عمامته، وهي الخاصة بالخلفاء الفاطميين، وأمســكت الرمح وتقلدت سيفًا، وكان العسكر يحيطون بي من كل جانب إلى أن وصلت إلى القاهرة، فكان الجميع في انتظاري، فدخلت القصر وجهزت أبي وغســلته ودفنته بيدي، وعندما واره التراب شــعرت شــعور غريب لم أشــعر به في حياتي، شــعرت أني كبرت بل شِــبت مئة عام في أقل من ساعة، أحسست بثقل المسئولية، وكأن جبل وضع على ظهري.

أشــعر كأن بداخلي شــخصين، شــخص عظيــم وقوي وصــارم، وهذا الشــخص وضع مكان قلبه حجر، وشــخص آخر رقيق وطيب وقلبه أرق من قلب النساء.

لقد شعرت بما يدور بداخلي من صراعات حول هذين الشخصين، يوم وفاة أبي ويوم المبايعة.

وجاء يوم المبايعة أنه نفس يوم عيد مولدي الخميس الثلاثين من رمضان.

أمام الناس ظهر الشــخص الصارم القوي العظيم، وعندما رأيت سارة ظهرت الشــخصية الأخرى، هذه الشــخصية كانت تريد أن تلعب وتلهو وتحب، لقد بدلّت حالي في لحظة، تحولت من شخصية إلى الأخرى في أقل

من دقيقة، تخليت عن كل شيء في سبيل أن أظل بجوارها، تخليت عن مكانتي وتصرفت تصرفات لا تليق بأمير المؤمنين القادم.

كفى جلدًا لنفسك يا منصور، لا تنكر أنك أعجبت بها بل أسرتك بعينيها، وأنت الآن تشتاق إليها، في كل دقيقة تمر بدون أن تراها.

وبينما أنا في لحظة اختلاء بنفسي، إلا وسمعت طرق على الباب، وكان طارقًا مُلِح ومُصِر، أنها أكيد ست المُلك، هي الوحيدة التي تجرؤ على الطرق هكذا.

- تفضل بالدخول.

كانت ست المُلك كما توقعت، وعندما فتح الباب الحراس، اتجهت إلى وقالت:

- أميري القادم المنصور اسم على مسمى إن شاء الله.

- ست المُلك، وأخيرًا أريد أن أتحدث إليك، ووضعت يدي على صدري وأردفت:

- إني أشعر...

وضعت ست المُلك يدها على فمي، وقالت لي بصوت منخفض:

- أعلم بكل ما تشعر به، وأشعر أنك خائف ومتردد وتائه، ولكن لا ينبغي أن تحدث نفسك بهذه المشاعر، أنت أمير المؤمنين، أنت خليفة الدولة الفاطمية القادم، أنت ابن العزيز الخليفة الفاطمي، فليبدأ التاريخ من الآن أن يكتب ويسجل اسمك في كتب التاريخ، أصغر خليفة فاطمي

يعتلي عرش الخلافة وعمره اثنا عشر عامًا، اعلم أنك ستكون حاكم عادل وأسطورة ستحكي عنها الناس مئات السنين، أعدك ألا أسمح بغير هذا.

لا أنكـر أن حديث سـت المُلك أعطاني الكثير مـن القوة والإصرار إلى جانـب أنها ذكرتني بأبي، الذي أحمل اسـمه ويجب أن أحافظ على هذا الاسـم، ولكن أيضًـا ازداد الخوف في قلبي من حجم المسـئولية، فأجبتها وعيناي يملأها إصرار وقلت:

- سأكون...

وجاء اليوم الذي لن تنسـاه ذاكرتي إلى الأبـد، اليوم الذي أدركت أني مُقبل على حياة ليسـت سـهلة بالمرة، وأن أعدائي يتربصون لي، وأن عرش الدولة الفاطمية مهدد بالسقوط إذا لم أكن على حجم هذه المسئولية الضخمة.

كانت من العادة التي اتفقنا عليها أنا وسـت المُلك عند مقابلة رجال الدولـة، أن تكون بجواري، ولكن من خلال سـاتر لـكي لا يراها أحد، ولا أتخـذ قرار في شيء من غير أن نتشـاور في الأمر مـع بعضنا، وأيضًا نأخذ رأي أرجـوان، ولكن بالنسـبة إلى كنـت أخُذ رأي يامن، فهـو على دراية بأمور البلاد، وعندما أشـعر أني بمأزق ولا أعـرف ما عليّ فعله عليّ بقول جملة واحدة، وهي التي تنقذني من الموقف، وتجعلني أمام الناس بهيئة الخليفة الوقور، الذي يفكر قبل أن يتكلم وهي: «دعني أنظر في الأمر».

في هذا اليوم كنت أجلس أنا وسـت المُلك في الغرفة التي كنت أقابل

بها رجال الدولة، وأتلقى الطلبات والشكاوى، وأناقش أمور الدولة، وهي نفس الغرفة التي بها المخبأ الخاص بست المُلك، دخل الحارس وقال:

- أن رجال من قبيلة كتامة -وهي قبيله من المغاربة- تريد مقابلتك.

نظرت لي ست المُلك نظرة فهمت أن في الأمر شيئًا غريبًا وقالت:

- لا تقلق سأختبئ ولكن اعلم أن هذه القبيلة صعبة المراس، كن لينًا معهم ولكن بوقار.

ودخل مقدمو كتامة وكانوا ثلاثة رجال وقدموا التحية، وتقدم كبيرهم خطوتين في اتجاه الحاكم، وبعد أن انصرف الحارس، قال كبيرهم:

- نحن هنا لسـنا لكي نتفاوض مع طفل صغير، ولكن هنا لكي تنفذ ما يملى عليك.

انزعجت كثـيرًا من كلمة طفلًا صغيرًا، وأحمـرَّ وجهي، وبدأت يداي ترتجفان، فأمسكت لجام نفسي، ووقفت وقلت صائحًا:

-أنت لست أمام طفل صغير، سأذكرك باسمي ولقبي لعلك نسيت أنا المنصور أو الحاكم بأمر الله، خليفه الدولة الفاطمية، ولكني لن أحاسبك الآن على تجاوزك، إني أريد أن أسمع منكم ما عندكم.

فضحك الرجال وتهكموا على حديثي وقال كبيرهم:

-صدقت لن نحاسـبك على كلامك هذا، والدك العزيز قد فضل علينا قبيلـة المشـارقة، وأنت مكان والـدك ووريثـه في كل شيء، لذلك يجب

أيضًــا أن تتحمل أخطاءه وتقوم بتصويبها، ومــن أوائل هذه الأمور هي أن تســتعيد قبيلة المغاربة نفوذهــا، وأن تقدم لنا فروض الطاعة والولاء، وتعين الشــيخ ابن عمار رئيسًــا لإدارة شــئون البلاد؛ وإلا فسوف نجعل القاهرة بحرًا من الدماء وسوف تعم الفوضى والخراب جميع أنحاء البلاد، وقبل أي شيء ســوف نبدأ برأسك، فكر في الأمر يا... لن أطلق عليك لقب خليفة إلى أن أرى رجاحة عقلك.

وانصرفوا.

ست المُلك

كنت أســمعهم مــن وراء هــذا الحاجز الخشــبي، كيــف يتجرأون ويتحدثون هكذا مع الخليفة، ســيصاب الحاكــم الآن بهلع، ولكني أعلم أن أخي يتظاهر كأن شيئًا لم يكن، يجب أن أخبره بحيثيات الموضوع، لكي يتصرف بهدوء وعقل سليم.

وخرجــت بعد أن انصرفوا، ونظــرت إلى المنصور، وكان يرتجف خلف هذه الملامح الصارمة التي يظهرها عادةً، وتوجهت إليه وتحدثنا

- اهدأ، أعلم أنك لا تعرف شيئًا عن هذه القبائل.

وقال صارخًا:

- لا تقــولي اهدأ، أخبريني ماذا نفعــل؟ وأخبريني أيضًا ما قصة هذه القبائل؟

- الدولــة الفاطمية هذا الكيان العملاق هناك ثلاثة عناصر ســاعدت هــذا الكيان على الاســتمرار، أو بمعنى أدق هناك ثلاث قبائل وليســت عنــاصر، ولنبدأ بأهم طائفة وهي طائفة المغاربــة: هم من البربر وكانوا يعيشــون في المغارب، وقد أتوا مِصر مع الفاطميين، وهم طوائف عديدة مثل: زويلة والصامدة وكتامة.

والأخيرة هي أشــد هذه الطوائف في كل شيء، كان المعز يقرب هذه الطائفة على حساب الطوائف الأخرى.

وثاني نوع من القبائل هي قبيلة (الحجر) وهذه ليست قبيلة بالمعنى المعــروف، ولكن هؤلاء مجموعة من أبناء مصر، وقد قام المعز بتدريبهم وتعليمهم جيدًا، وأعطى لهــم رواتب ومناصب في القصر، وأطلق عليهم صبيانًا أو غلمان الحجر كما تعلم، وكان يامن -حارسك الخاص- منهم.

وثالث نوع من القبائل: المشــارقة، والمعــز أول من أدخلهم الجيش الفاطمي، كان يســتخدمهم كجند مرتزقة في جيوش المســلمين، وهم من الديلــم والترك، ولهم حارات باســمهم: حارة الديلــم وحاره الترك، وفعل أبوك عكس ما فعل المعز، فقد قرب المشارقة إليه على حساب عناصر أخرى.

- ولماذا استعان المعز بهم؟ ألم يكفيه الكتامة؟

- حتــى لا يســتبد به البربر، وقد حاولوا الانفــلات عنه أكثر من مرة، مــما جعل إخلاص طائفة البربر غير موثوق فيه، فكان يجب أن يســتعين

بالمصريين، وخصوصًا أن المصريين يحبون الفاطميين بعد ما عاونوهم على العباسيين، وأيضًا كان يحتاج إلى جنود مرتزقة لذلك استعان بالمشارقة.

- والحل؟!

- قبيلة كتامة قبيلة كبيرة وقوية، ونحن لن نريد أن نكسب أعداء فوق أعدائنا، وأنت أيضًا في بداية حكمك، لذلك الحكمة تقول إن نسترضيهم، ولكن بطريقتنا وبأسلوبنا.

- وماهي الطريقة؟

- رتبة الوساطة

- وهل هناك رتبة في الدولة تسمى الوساطة وأنا لا أعلم؟!

- بما أننا أمام حاكم جديد، لذلك نحن بصدد حكم جديد، ومن التجديد رتبة جديدة وهي الوساطة.

- وماهي الوساطة يا أختي الحكيمة؟

- الوساطة من اسمها الوسيط بين الخليفة والرعية، وسنعطي ابن عمار هذه الرتبة، وسنلقبه أيضًا بلقب أمين الدولة.

- أمين الدولة!

- لقب جديد مثل الرتبة الجديدة، لا تقلق سنضعه تحت أعيننا وستسير الأمور كما نريد نحن.

- أتمنى أن تسير الأمور بهذه البساطة التي تتحدثين بها.

- لا تقلق، الله المستعان.

بتـــول

أمي كانت تريدني بعد صلاة الفجر أن أحضر ماء من مجرى النيل قبل أن يســتيقظ الناس للذهاب إلى عملهــم، لأن أخي الأكبر لم يكن معنا في هذا اليوم، فذهبت إلى مجرى النيل لكي أحضر الماء إلى أمي، ولكن في أثناء عودتي بالجالون المملوء بالماء، رأيت سارة وهي مسرعة في اتجاه المقطم، حتى عندما ناديت عليها لم تسمعني، تركت الجالون وذهبت وراءها لكي أفهم لمَ تسرع في هذا الاتجاه، ورأيتها تقترب من مكان الأرجوحة القديمة، ووجدت شابًا بانتظارها.

تُرى مــن هذا الذي ينتظرهــا هناك؟ وبينما أنــا أسرع الخطوات إذ بشــاب لا أعلم من أيــن ظهر واعترض طريقي، ونظرت لــه وأنا أريد أن أوبخــه على ما فعل، ولكنه كان يتكلم بثقة أعجبتني، كان يتكلم كأنه لم يفعل شيئًا، جعلني لا أرى أحدًا غيره، كان لقائي به غير تقليدي ليس ككل العلاقات، إن غرابته واختلافه هوما أعجبني فيه، وأصبحت لا أرى ســارة ولا هذا الشاب الذي كانت بصحبته.

هنــاك أوقات يتعذر فيها على العين أن ترى غير شــخص واحد، حتى لو أشتدَّ الزحام.

وقال بنبرة الواثق: من أنتِ؟ وماذا تفعلين هنا؟

- وما دخلك أنت، هل أنا سألتك ماذا تفعل هنا؟

نظر إلي وكأنه غير مدرك ماذا يسمع:

- أنا هنا للحراسة والأمن، وأنتِ غير مسموح لكِ أن تتجاوزي هذه المنطقة.

- أمن منْ؟ وحراســة من؟ أنا أريد سارة صديقتي، ومن هذا الشخص الذي تتحدث إليه سارة هناك؟

- هل سارة صديقتك؟!

- نعم إنها أختي وليست صديقتي.

- لا أعتقد.

- لِمَ تقول هذا؟

- ســأخبرك، ولكــن دعينا نجلس هنا بعيدًا عــن الأنظار، لكي لا نكدر صفو لقائهم.

- نكدر صفو لقائهم، (قلت متعجبة)!

- هيا ولا تنظري إلي كثيرًا هكذا.

وسرت معه، الطريق إلى المقطم دائري، لذلك من الممكن أن تكونوا في نفس الشارع ولا تستطيعون رؤية بعضكم البعض، لذلك هذا الشاب كان يجلس للحراســة قبل الانحناء الأخير، لكي يمنع أي شخص من رؤية سارة والحاكم، وبعد وصولنا للمكان الذي سنجلس فيه قلت له:

- أخبرني هيا، لما تقول إنها ليست صديقتي؟

- لأنها لو كانت كذلك، كانت ستخبرك أنها تحب الحاكم، ويتواعدون

هنا كل يوم، وللعلم لم أكن أريد أن أخبرك، ولكنك أنتِ من رأيتهم.

- حاكم من! (نطقتها وأنا لست مستوعبة ماذا يقول)

- هل هناك شخص آخر في بلدك يلقب بالحاكم غير الحاكم بأمر الله؟!

وصرخت من هول المفاجأة:

- من!

- اخفضي صوتك إذا سمحتِ.

- معذرة، لكن كيف؟!

- فقال لي هكذا، ومال رأسه إلى اليمين بدعابة، جعلني أضحك وقلت له:

- من أنت؟

- أنا يامن الحارس الخاص للحاكم، ولا تغضبي من سارة، الموضوع في مجمله غريب، لذلك هي لم تستطع إخبار أحد.

- لا لم أغضــب ولن أغضب، هذه حياتها وهي حرة تخبرني ما تريد أو تخفي عني ما تريد، أنا فقط متفاجئة.

- أني منبهر حقًا.

- لِمَ؟

- لأنك تتفهمين الوضع بسهولة، وهذا بالنسبة للنساء غريب.

- ليست كل النساء مثل بعضهن، وأيضًا ليس كل الرجال مثل بعضهم، قد تجد رجلًا أخرق، ورجلًا حكيمًا، ورجلًا صادقًا، ورجل كاذبًا، وهكذا...

- ما اسمك؟

- بتول

- ألم أخبرك أنكِ مختلفة؟

- لا لم تخبرني، وابتسمت له.

- إذًا أنتِ مختلفة، ماذا ستفعلين؟ ستخبرين سارة أنك رأيتها أم تنتظرين إلى أن تخبرك؟

- أكيد الحل الآخر، أخبرتك أنها حرة، سأعود إلى المنزل الآن، لكي لا أتأخر.

- انتظري، هل سأراك ثانيًا أم لا؟

- لِمَ تريد رؤيتي؟

توتر وقال وهو ينظر إلى عيني:

- أقسم أني لا أعلم.

فضحكت وقلت له:

-ولكني أعلم.

قال وهو مندهش من ردي عليه:

-ماذا؟

- اتركها للقدر، إلى اللقاء.

- إلى اللقاء

سـارة

ذهبـت للقاء الحاكـم وكان منزعجًا من مقابلة رجـال قبيلة كتامة، وأخـبرني أيضًـا بما قالته له سـت المُلك من موضوع الوظيفـة الجديدة، واللقـب الجديد في بداية الأمر، كنت أريـد أن أخبر منصورًا أن الأمر لن يمر على خير، وأيضًا يجب أن يكون هناك خطة بديلة في حالة وجود غدر من ناحية المغاربة، ولكن حالته كانت سيئة، لذلك أردت أن أطمئنه لعله يستطيع أن يهدأ، فيفكر بالأمر بطريقة أفضل، فقلت له:

- ظن بالله خيرًا، ستصبح الأمور بخير إن شاء الله.

- تعلمي أمرًا؟

- وأنـا معك أشـعر أن الدنيا هادئة، وأن جميع النـاس طيبون، وأني لست الحاكم وليست لدي مسئوليات.

فابتسمت وأنا أنظر إلى عينيه وأردف قائلا:

- ابتسـامتك حلوة، وعيناك حالمتان وحديثك ممتع، تنقليني إلى عالم آخر، عالم غير عالمنا هذا، عالم كله ملائكة، وتفوح منه رائحة المسك.

وأمسـك يدي واقترب مني، لم أكن أريد أن أصده، لأنه مرهق فكريًا، لذلـك تركته، وضمني بشـدة إلى صدره، كأنه لا يريـد أن يفلتني، وبدأ يقبلنـي، وكانت قبلاته صغيرة ودافئة وحنونة، وبدأ بجبهتي ثم عيني ثم أنفي إلى أن اقترب من شفتي، لم أستطع أن أجعله يكمل، أبعدت نفسي

من قبضة ذراعه بصعوبة، وقلت له:

- كفى يا منصور، أرجوك.

- أحتاجك.

- وأن أيضًــا أحتاجك، ولكن ليس كل ما تشــتهيه النفس تدركه، عليّ الذهاب لقد تأخر الوقت.

- أحبك وأتمناك وأشتهيك لي.

- سنكون في يوم من الأيام لبعض.

صمت كثيرًا وقال لي:

- علينا الذهاب.

وبينما نحن نعود إلى المكان الذي ينتظرنا فيه يامن، حيث سنفترق أنا والحاكم، جاء يامن إلينا قبل أن نصل إليه، واســتأذن الحاكم لكي يتحدث إليه، فذهب منصور مستغربًا، وعندما عاد قال لي بطريقة فيها شيء من الحنان والخوف:

-عندمــا تعودين إلى الدار وتســتريحين قليلًا، حــاولي أن تذهبِ إلى صديقتك بتول وتخبريها بأمرنا، أنها صديقة جيدة أليس كذلك؟

وكنت متعجبة من الموضوع.

-بتول! أنت تعرف بتول مــن أين؟ ولِمَ أخبرها بموضوعنا؟ ونعم هي جيدة لِمَ السؤال؟

-هي رأتك وأنتِ تأتــين إلى هنا وفهمت من يامن، وهو قال لها لأنها رأتنا، إلى جانب أنها قالت له أنكم أصدقاء.

صدمــت في الواقع، فأنا لم أكن أريــد أن يعرف أحد، ولكن بتول دائمًا كتومــة، ولكني تداركــت الموقف حتى لا يقلق المنصــور، وهو لديه من الهموم ما لا أحد يطيق أو يصبر، فقلت له وكلي ثقة:

- لا تقلق، فبتول لا تحشر نفسها فيما لا يعنيها.

وتركتــه وأنا عقــلي مزدحم بالكثير من الأفكار، مــن ناحية أمر بتول، وكيف ســأخبرها وأنا أعلم أنها تعرف، ومن ناحية أخرى مصائب الحاكم وموضــوع المغاربة، ومن ناحية أجمل فيــما فعلنا اليوم من تجاوزات، لا أدرى كيف سمحت بها، ولكنها صارت وأنا كنت مستمتعة.

الفصل الثالث

(أننا نحاول تفسير الأمور وفق ما نريد لا وفق ما هي عليه)

✍ أوضــاع البــلاد (996- 997)

كان لقب أمين البلاد ورتبة الوساطة غريب على المصريين وأيضًا رجال الدولــة، فكان ابن عمار أول من تلقب من رجال الفاطميين في مصر، كما أن ظهور كلمة دولة في لقب ابن عمار أيضًا أول مرة.

الأحداث تزايدت وتكاثرت أكثر مما كانت تتخيله ست المُلك والحاكم، ابن عمار أصبح يســيطر على السلطة الزمنية، دون السلطة الدينية التي بقيت للحاكم لأنه الإمام، لقد تمادى ابن عمار في بسط نفوذه.

حيث نقش اســمه ولقبه على الملابس الرسمية التي توزع على رجال الدولــة، كما أمرهم بالترجل له عند روايتهم لــه، وأيضًا تقبيل ركبته، ولم يقتصر الأمر على رجال الدولة، بل شمل الأهالي أيضًا.

وفَرق الأموال الكثيرة على طوائــف المغاربة، وقرب طائفة كتامة من السلطة، وولى شــيوخها الوظائف الرئيســية في الدواوين، والولايات كما كانت في عهد المعز، وفي نفس الوقت عزل المصريين من الدواوين وقتل بعضهم.

وبعدما وصلت نفوذه إلى منتهاها، أُشــير لــه أن يقتل الحاكم، ولكنه رفض لأنه لا يعني له شيئًا، سوى إنه مجرد طفلًا صغيرًا.

وتوقف عن إعطاء قبيلة المشــارقة المال، بل وعاملهم أســوء معاملة، ونتج عن ذلك هروب أغلبهم إلى الشــام، وبذلك أصبحت القوة العظمى للمغاربة، وامتددت هذه القوة للجيش أيضًا.

ولم يكتــفِ هــو بذلك أو قبيلته، بــل عاثوا في الأرض فســادًا، فكانوا يسرقون الأموال والنســاء التابعين للأهالي، مع أن العرف من أيام المعز أن من يسيء إلى الأهالي يعاقب بالجَلد أو الحبس.

المعز -رحمه الله عليه- كان يعلم أنهم مؤذون، لذلك نقلهم هو ومن بعده جوهر الصقلي إلى أطراف القاهرة نواحي عين شمس، وحرم عليهم الدخــول أو المبيت في القاهرة، أما ابن عمار فقد تجبر وطغى، ووصل به الجــبروت إلى أن يدخــل قصر الحاكم راكبًا، بــل الأدهى أنه كان يتعرض لجواري القصر، وهذه إهانة لا يقبلها أحد.

سـارة

لم أكـن أعلم أن حبي لأبي وخوفي عليه، سـيجعلني أتحول من حمل وديع إلى أسد شرس.

ذات يوم عـاد أبي للبيت وهو غاضب ولم يتحدث مع أحد، بل أغلق الغرفة على نفسه، ومنع أي فرد من الدخول إليه، وكاد القلق أن يعصرنا أنا وأمي، وبعد مدة ليسـت بقليلة، نادى على أمي فذهبت مهرولة إليه، وبعد دقائق خرجت من الغرفة وحالها كحال أبي.

- أمي ما الأمر!

-هذا المدعو ابن عمار قد قام بطرد والدك من العمل، وعين شـخص غيره من قبيلة المغاربة.

أخرستني المفاجأة، ولكني أخذت نفسًا عميقًا، وقلت لأمي:

-وهل الحاكم يعرف ذلك؟

نظرت أمي نظرة استهتار وقالت:

- الحاكم! وماذا سيفعل هذا الطفل الصغير أمام ابن عمار وقبيلته؟

وأردفت وهي مستاءة:

- لم يكن اختيار الحاكم بأن يتقلد الحكم في هذا العمر الصغير اختيار موفق، والأسوأ أن الذي يتحمل أخطاء الحكام هم الشعوب.

- الـرزق بيد الله لا بيد ابن عمار أو الحاكم، بإذن الله سـيجد عمل آخر، وأفضل من العمل بالقصر.

- هــل تتخيلــين أن والدك مســتاء من ترك العمل، الــرزق على الله، وهــو مؤمن تمامًا بهذا، ولكن ما يحزنه الطريقة التي ترك بها العمل بعد خدمته إليهم طوال هذه الأعوام، أن يهان بهذه الطريقة البشعة.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أنتفض واقفة وأصيح:

-يهان! من يجرؤ على ذلك؟ أخبريني يا أمي ماذا فعلوا بأبي هؤلاء الرعاع؟

- اخفضي صوتك لكي لا يعلم أني أخبرتك، والدك لا يريد أن تهتز صورته أمامك، وأنا قمت بإخبارك فقط، لأني لو لم أتحدث مع أحد سأصاب بنوبة من الجنون، الشخص الذي أســتلم العمل بدلًا من والدك قد قام بطرده وإزاحته من على مكتبه، فلم يتمالك والدك توازنه ووقع على الأرض، فقام هذا الرجل هو ورفاقه بالضحك والاستهزاء على والدك، فحزن على نفسه، أبــاك يعمل في هذا القصر مــن أيام العزيز -رحمه اللــه- وهو معروف بالأمانة، لذلك العزيز أعطاه وظيفة أمين الخزنة.

دموعــي لم تتوقــف عن النزول من عيني، أشــعر بها حــارة ودافئة، ولكنها في صدري بركان من نار، أن قلبي تملأه الغيرة على أبي، من أنتم يا أوباش لكي تفعلوا ذلك بأبي، وحق لا إله إلا الله ستندمون، أذن فليتوقف هذا العالم عن الدوران إلى أن أحضر حق أبي.

جففت دموعي وأخذت عباءة أبي السوداء، والشال الأسود الذي نادرًا مــا يردتيهم أبي، وقبل أن أخرج مــن البيت توجهت إلى غرفته، وقلت له من خلف الباب:

- أحبك يا أبي حب ليس له بداية أو نهاية، أنت عشقِ المستمر إلى أن يشاء الله، ويأخذ أمانته مني.

وغادرت المنزل وأنا أسمع صيحات أمي «إلى أين... عودي أرجوكِ»

ست المُلك

كاد عقــلي أن يخرج من رأسي محتجًا من كثرة التفكير والقلق، رافضًا الاستمرار في هذا الجسد، كنت أمشي بالحجرة ذهابًا وإيابًا، لم أكن أصدق أن بعد شــهرين فقط من تولي ابن عمار منصــب أمين الدولة، أن يفعل كل هذه الكوارث، لم يبقَ إلا أن يقوم بعزل الخليفة من منصبة، يجب أن يكون هناك حل لما يجري.

- أيها الحراس أحضروا لي أرجوان الآن.

وحضر أرجوان، ذلك الخص الأبيض الذي جاء من وسط أوروبا، وعمل خادم في قصور المســلمين إلى أن وصل لمرتبة أستاذ أو كبير الخدم، ولكنه يتمتــع بحيلة ودهاء يجعل رأيه الأهم بالنســبة لي، مــع أني غاضبة منه لعدم مساعدتي في تقلد عبد الله الحكم.

قطع شرودي حديثة عندما دخل إلى الغرفة:

- أمرك يا مولاتي وملكتي ست المُلك.

- أريــد دهاءك وحكمتك يا أرجوان، أنت تــرى أفعال ابن عمار، أنه يزداد قوة ونفوذ يوم بعد يوم، وعرش حبيبك ومولاك العزيز -رحمه الله

عليه- سـينهار، وحفاظك على العرش من بعده ومبايعة الحاكم كل هذا سيذهب سدى.

- تريثي يا مولاتي، لا شيء سينهار ولا شيء سيذهب سدى، سنقضي على ابن عمار ولكن ليس بأيدينا، وإنما بيد أعداء ابن عمار والمغاربة عمومًا.

- أتقصد المشارقة؟!

- نعم يا مولاتي.

- يا لك من رأس أفعى، إذًا أخبرني ما الذي يدور برأسك؟

- ألم نحرص من مدة على التواصل مع المشارقة، لكي يذهبوا إلى الشام في حين أن نتخلص من المغاربة وابن عمار؟

- سنرسـل لهم أن الملكة سـت المُلك والحاكم يريدون أن تقوموا أنتم بالمهمة هذه، وفي مقابل هذا تستردوا مكانتكم كما كانت في أيام العزيز، وسننتظر منكم الرد.

- فكـرة عظيمة، إذًا أبعث لهم خطاب بما اتفقنا عليه، وأيضًا أخبرهم أني أخترت من يتقلد منصب أمين الدولة، وهو عبيد الشرى.

- عبيد الشرى؟!

- ماذا بك؟ ألا يعجبك اختياري؟

- ليس هذا وقته، لكل وقت أذان، الأهم الآن أن نتخلص من المغاربة وابن عمار، سأرسل لهم ما أمرتِ به.

الحاكم

الأمور تخرج عن إطارها، وست المُلك وأرجوان يرددون كلمة واحدة، ألا وهي الصبر...

والأهالي الذين يأتون كل يوم للشــكوى والتذمر من أفعال ابن عمار والمغاربة، فهل ســيصبرون؟ أني حاكمهم وأنا المسئول عن حمايتهم، بماذا سأخبر الله عند سؤالي عنهم؟

- مولاي ما بك؟ لما أنت شارد هكذا؟

قطع تفكيري سؤال يامن لي.

- مستاء بسبب ما يحدث في البلاد، وأشعر أني مكبل اليدين.

وبينــما أنــا ويامن نتحــدث، أخبرونا الحــراس أن هنــاك رجل ملثم بالخارج، ويريد رؤيتي، وأرسل مع الحراس ورقة لكي نسمح له بالدخول، تبادلنا أنا ويامن نظرات التعجب وقلت ليامن:

-أعطيني هذه الورقة يا يامن.

- أخشى يا مولاي أن تكون بها سم ما؟

- أعطني الورقة يا يامن.

وفتحت الورقة وقرأت وتملكتني الدهشة من فرط ما قرات، وتسارعت دقات قلبي، وكان مكتوب بها «أحبك وتعلم وتحبني وأعلم، ولكني جئت اليــوم كواحدة من ضمن رعاياك، جئت لكي تســاعدني في محنتي وتُرجع

الحــق لأصحابه، لقد رأيت في عينيك نبل وأخلاق الرجال لذلك ســأعتمد عليك، أنا سارة وأرجو مقابلتك لأمر خطير».

- يامن فليدخل الملثم ولينصرف الجميع.

نظر لي يامن بتعجب وقال:

- أمرك يا مولاي.

وخرج الحراس ودخل الملثم وأغلق يامن الباب، وكان في وضع المتحفز لمواجهة أي خطر.

- يامن أخبرتك أني أريد الجميع أن يخرج.

- خرج الجميع يا مولاي.

- يامن وأنت أيضًا.

نظر يامن بدهشة وقال:

- أرجوك يا مولاي لا أستطيع أن أتركك بمفردك مع هذا الشخص، وأنا لا أعلم من يكون أو...

قطعت حديثة وأشرت إليه لكي ينصرف، وقبل أن يخرج قال:

- أنــا قريب منك يا مــولاي لو حدث أي شيء أزعجك، عليك فقط أن تنادي، وفي أقل من ثانية سأكون تحت قدمك.

ولنصرف...

نزلت من على الكرسي وتوجهت إليها، وكانت تريد أن تنتزع الوشــاح

من عليها، ولكني استوقفتها وأخبرتها بأني سأتولى هذا الأمر، وكشفت عن وجهها، أنها تتفجر أنوثة وجمال، كأن القمر تخلى عن موضعه ونزل للأرض إشفاقًا لهم؛ لكي يخبرهم أن هناك جمال من طراز خاص، جمال نادر الوجود، شردت قليلًا متأملًا إياها إلا أن تنحنحت، ثم جذبت الشال من يدي ورجعت للخلف بضع خطوات، وقالت:

- مولاي الحاكم لقد جئتك في أمر هام، أمر يتعلق بأبي.

كان من الصعوبة عليّ أن أرى ذلك الجمال وبنفس الوقت أن أصب تركيزي حول هذا الحديث الذي تقوله، ولكني جاهدت نفسي كثيرًا لكي أستطيع أن أستوعب ما تقوله، أنها تقول أبي، إني حقًا لا أعلم ماذا يعمل والدها، مع العلم أنها حبيبتي، كيف لا أعلم؟

-ومن يكون والدك يا سارة؟ لا أستطيع أن أصدق بعد كل هذه اللقاءات بيننا وأنا لا أعلم من يكون والدك.

-لأنك لم تسألني، عمومًا أنه أبو بكر، كبير أمين خزائن الدولة، وهو كان يعمل مع العزيز، ومشهور عنه الأمانة والصدق.

- لابد أن يكون والدك أبو بكر لأنه فعلا أمين، يكفي أنه يمتلك جوهرة كهذه وأستطاع أن يحافظ عليها.

- عفوًا يا مولاي، أهذا ردّك على شكوتي إليك؟

- مولاي، مولاي! ألم أخبرك أني لا أريدك أن تناديني مولاي هذه؟! ثم أنا لم أستمع إلى شكوتك إلى الآن.

- أولًا أنــا وأنت الآن في قصرك، بمعنــى أكثر وضوحًا أنت الآن الحاكم وأنا واحدة من رعاياك، لســنا حبيبان، وأيضًا لســنا عند الأرجوحة مكان لقائنا المعتاد، لكي نتحدث كعاشــقين أو أن نحذف المســافات بيننا، أريد أن أرجع لأبي كرامته، رجال ابن عمار أهانوا أبي، ولن أســمح بهذا أن يمر مرور الكرام.

-سارة حبيبتي اسمعيني جيدًا، أولًا إذا كنا عند الأرجوحة أو في القصر ســتظلين حبيبة قلبي، ثانيًا أني على علم بأبيكِ جيدًا، وإهانته أمرًا عظيم بالنسبة إليّ، ولكن أعطني فقط الوقت لكي أستطيع أن أستعيد حق أبيكِ.

- وقت ماذا! ألم تعلم بأن البطء في العدل ظلم؟

- ولكن الآن لا خيار أو اختيار لدي.

- عدم الاختيار هو أســوأ اختيار، أن صمتك حكم أسوأ من أي حكم، صمتك هذا لن يعفيك من المسئولية، صمتك سيقتل أبي وغيره من الأهالي الذين ظلمهم أبو عمار، صمتك سيبقى مثل جلاد أخرس يقضي عليهم.

- أنا لم أتهرب من المســئولية، أنا فقط أطلب بعض الوقت، لكن الآن لا خيار أو حل عندي، لا أعرف ماذا أفعل؟

ابتسمت بسخرية وقالت:

- العارف لا يعرف؟ وأردفت:

مولاي لم أجد في شــكواي إليك دوائي، ولكني أحب أن أخبرك بجريمة

قتل من قبل أن تحدث، سأقتل أبو عمار، ولو أخذ ألف حياة فوق حياته، سأقتله...

- أتمنى أن أقتله قبلك؛ لكي لا تدنسي يداك بدم هذا الخنزير.

وغادرت وغادر قلبي من صدري معها، وأصبح عقلي لا يتقن وظيفته، لقد تغيرت خارطة أعضائي، وغيرت تاريخي ومستقبلي.

وأصحت بأعلى صوتي:

- يااااامن.

جاء يامن من الخارج وأصبح أمامي.

- أريدك أن تستدعي أرجوان الآن، أريدكما معًا.

- أمرك يا مولاي.

- إن أرجوان في الخارج منذ الوقت الذي حضر فيه هذا الملثم، دقيقة يا مولاي سوف أوتيك به.

وامتثل الاثنان أمامي ووجهت كلامي للأرجوان:

- هــل علمت يا أرجوان أن أبو بكر كبير أمــين الخزائن قام أبو عمار بطرده من منصبة، وعُين فرد من أفراد قبيلة المغاربة؟

- مولاي، قضي الأمر، اليوم وليس غدًا، سيقتل عبيد الشرى أبو عمار.

- اليوم! أنت متأكد مما تقول.

- نعم يا مولاي، اليوم.

- ســنرى، هنــاك موضوعًا آخر، علمت يــا أرجوان أن جيشــنا أحرز انتصــارات هائلة عــلى الروم في صور، أني أريــدك أن تحضر «علاقة» إلى مصر-علاقة هو أمير رومي اســتطاع الاســتيلاء على صــور وضرب عمله، ونقش عليها «عزا بعد فاقه للأمير علاقة»- أريدك أن تصلبه وتســلخه في ميدان عام؛ لكي يكون عبرة لمن يتطاول على الدولة الفاطمية.

وأريــد أن تصل الأخبار إلى باســيل، وأريدك أيضًــا أن تقتل الدقس، وأبناءه أيضًا في ميدان عام.

«كان جيش الحاكم توغل إلى أرض الروم في منطقة الثغور، وقابل جيشًا بيزنطيًا بقياده الدوق «داميانوس الدلاستوس» ويطلق عليه العرب الدقس».

- مــع احترامي يا مولاي لرأيك، لكن قتل أبناء الدقس لن يزيد الأمور إلا تعقيدًا، والروم دولة قوية وجيشــها قوي، لذلك عقد السلام مع الروم هو أنسب وأهم الحلول، وأنا أرى أن نكتفي بقتل الدقس لأنه تعدى على الدولــة الفاطمية، وأيضًا قتل أبناءه ســيثير بلبلة حول معاملة الفاطميين لأسراهم من الأعداء، إلى جانب أن ست المُلك ستغضب على ما أعتقد.

- تفهمت وجهة نظرك، وإني موافق عليها.

وتحدث يامن أخيرًا بعدما صمت طويلًا وقال:

- أرى يــا مولاي أن قتل علاقة والدقس قــرار صائب، ولكن موضوع ميــدان عام هذا ليــس صوابًا، وأنت في بداية حكمــك وموضوع الصلب والسلخ أيضًا يعتبر زائدًا عن الحد، يكفي القتل.

- يا يامن أيفيد الشـــاه سلخها قبل ذبحها؟ أنا سأصلبه أولًا ثم أسلخه ولن يشعر بشيء، ولكن لكي يهاب مننا الأعداء.

- كما تشـــاء يا مولاي، ولكن يكفي علاقـــة، أن الدقس رجل دين وله مكانة اجتماعية، سيترتب عليها زيادة أعدائنا.

- أنت تعلم يا يامن أني أثق في رأيك، فليكن...

- هناك أمر آخر يا مولاي، وأريد أن أطلعك عليه ولكنه خير.

- أتشوق لسماع أخبار سعيدة، تحدث!

- هنـــاك مجموعـــة كبيرة مـــن الشـــيعة يحبونك، ولكـــن يبالغون في تقديرهم إليك.

- كيف؟

- يقولون إنك لست إمام مثل الأئمة السابقة، وأنه أُشير إليك في التوراة بالرمز (الزاهد الراكب الحمار) وأشياء من هذا القبيل.

- لا تقلق يا يامن، أنه مجرد حب زائد.

- أنا لست قلق، أني أخبرتك أنها أخبار سعيدة، ولكن مبالغ فيها.

- هل هناك أمور أخرى؟

- لا يا مولاي، اسمح لي بالانصراف.

ريحانة

مع موسى وجدت الحب الذي بحثت عنه طيلة حياتي، لا توجد طريقة

مشروعــة أو مقبولة لكي نلتقــي معًا دون أن أنجرف في تيار الخيانة، وأن أدمر كل مبادئي وأخلاقي، ولكني لن أيأس في أن نلتقي.

لكــن لــو اســتطعت أن أواجــه زوجي وأطلــب منه الطــلاق، هل سأستطيع أن أواجه المجتمع؟ هل سأواجه أهلي وأصدقائي؟ هل سأواجه الواقع نفسه؟ هل أستطيع أن أتحمل الحياة وبعنقي طفلين؟ وهل موسى يستحق أن أدمر حياتي بأكملها لأكون معه؟

مــاذا أخبر أمي؟ أأخبرهــا أني على علاقة حب برجل يصغرني بســت ســنوات؟ وهي أنقى وأطهر علاقة تمر بحيــاتي، أأخبرها بأنه حب عفيف وطاهر ولا تتخلله الشــهوات والرغبات؟ عندمــا أتذكر موسى في أحداث يومي أبتســم، كأني أرى شيئًا جعلني ابتسم، وكلماته لي كانت وستظل في أذني كلحن جميل، طعم الكلمات نفسها تجلي روحي وتطهرها، وتجعلني أشــعر أني حورية من حوريات الجنة ولســت إنسانة طبيعية، ولكن على الرغم من علاقتنا المســتحيلة ولكن لديّ أمل بأنها ستجد في الأمور أمور، وسنبقى معًا إلى الأبد.

اليوم لدي لقاء مع موسى أشــعر بأن قلبي ســيخرج من ضلوعي من شدة الفرح.

ولكي لا نلفت الأنظار إلينا، ولا يظن أحد الســوء فينا فسوف نذهب إلى الســوق، لأن موسى لديه صديق يدعى عــمار، وهو يمتلك محل لبيع

الأقمشـــة، فجعلنا هذا المحل مكان لقائنا، فسنتحدث داخل المحل وكأني أشـــتري القماش وكأنه يبيعه لي، بـــدأت في تجهيز نفسي للخروج وأخبرت أمي بأني ذاهبة للســـوق وزوجـــي كان في عمله، توجهت للســـوق وكان بانتظاري وتحدثنا

- تأخرت كثيرًا يا جميلتي، قلقت عليك.

- قلقت أم مللت؟

- مللـــت! اليوم الذي أمل فيه انتظارك ســـيكون يومي الأخير، يا ليت انتظاري لكي يكون في الموعد فقط، ولكن انتظاري أصعب الصعب ومؤلم كثيرًا، انتظاري هو أن يتحول المستحيل إلى الممكن.

نظرت إلى عينيه وابتسمت، وكانت مليئة بحب وخوف لم أرَ مثله في حياتي.

وأثناء تبادلنا النظرات جاءت ســـيدة لكي تســـأل على ســـعر نوع من القماش، فأشـــار لها إلى عمار، ولكن كان الأخير منشـــغل بعمله، وقبل أن تنطق المرأة لاحظ عمار رغم انشـــغاله وقوف السيدة بالقرب من موسى، فأشار إليها أن تحضر عِنده، ونظر لي موسى وقال:

- أصبح اللقاء هنا مزعج وخصوصًا أننا اقتربنا من عيد الفطر وازدحامه.

- أعجبتكِ؟

- من.

- هذه المرأة، أنها جميلة.

- وهل هناك ما هو أجمل منكِ على وجه الأرض.

- ولكنها مثيرة.

ضحك ونظر في عيني وأخبرني:

- وأنتِ أكثر نساء الأرض أنوثة، أن عطرك فقط قادر علي اجتذابي من أمام عشرات النساء، إني أعشق مفاتنك وانحناءتك ولفتاتك، إني أخاف أن أقترب منك لكي لا أشــوه هذا الجمال، أنكِ مثل آلة الجمال عند المصريين القدماء، أنتِ يا حلوتي حورية من حوريات الجنة، ولكن ليس معنى هذا أني لا أشــتهيك أو أريدك أو أتنفس رائحتــك، ولكن اللعنة على الظروف التي تجعلنا نقابل الأحباب في التوقيت المستحيل.

لم أســتطع أن أمنع دموعي من الســقوط وقتها، أمسك يدي وضغط عليها، فســارت قشعريرة في جســدي بأكمله، فشعر برجفتي فترك يدي، وكنت أتمنى أن تظل يداي في أحضان يديه لآخر عمري وقال لي:

- باللــه عليك لا تبــكي يا جميلتي، لا أريد أن يكــون لقائنا محزن أو يتســبب في أوجاعك، أريده أن يكون طاقة لكي نكمل مشوار حياتنا معًا، إني هنــا فقط لأجلك، أنا أدعو الله دائما أن يجعلك نور وخير لحياتي، وأن يبــارك لي فيكِ، ويديم وجودك بحياتي، إني أشــعر بمعجزة ســتحدث لكي نكون معًا، لم يتوقف أملي لحظة عن لقائنا المنتظر.

- سنكون، أنا أيضًا أثق في ذلك.

- يجب أن أغادر لكي لا أتأخر على أمي وأولادي.
- تصحبك السلامة والسعادة والخير يا كل الخير.

يـامــن

بتــول كانت جميلة مثل الأحلام، أميرة من أميرات الحكايات القديمة، لديها دلال وجمال وأيضًا فكر وعقل راشد، تعطيك الإلهام لكي تبدع معها وتفكر في أي شيء، بل وكل شيء.

عندما رأيتها وبدأنا الحديث، ورأيــت انفعالاتها وأيضًا رجاحة عقلها وأنــا تأكدت أنها مختلفة، واختلافها هذا يــروق لي ويعجبني، لا أعلم لما طلبت منها أن أراها ثانيًا، والغريب أنها أخبرتني أنها تعلم ما لا أستطيع أن أعلمه، تعلم لما أريد أن أراها.

فتنتني وسحرتني...

إلى لقاء قريب يا مختلفة.

✍ الحاكم

بعد ما علمت بمقتل أبو عمار لم أشعر بنفسي إلا وأنا أمتطي جوادي، وأتوجه إلى منزل سـارة، لم أكن أعرف منزلهـا ولكني أخذت يامن معي، فهـو يعلم أين يقـع منزل أبو بكر، وطبعًا واجهـت اعتراضًا ونصائح من يامن لا تنتهي، ولكنه في النهاية امتثل لأوامري لأني الحاكم بالتأكيد.

كانت هذه المهمة الأولى بالنسـبة لي: وهي إقناع يامن وذهابه معي إلى منزلهـا، بقـي لنا المهمة الثانية وهي كيف سـأراها لـكي أخبرها أني بسـببها تعديت وكسرت كل القواعد والأعـراف وأتيت إليكِ يا ملهمتي، أنها الاستثناء الذي يثبت القاعدة.

بعد مناقشـات ومجادلات كادت أن تقضي على باقي الليلة، اتفقنا أن نتوجه إلى دار أبو بكر بصفة رسمية.

والصفة الرسـمية هـذه كانت تعـرض أحد موظفـي الدولة للظلم والإهانة، فجئنا لكي نقدم التعويض المناسـب عـلى ما تعرض له، وكانت عبـارة عـن مكافئة مالية، مع إننـي في الحقيقة كنت أتمنـى أن أخبرها في جلسـة رومانسـية بيني وبينها فقط أني أخذت بثأر أبيها، ولكن يامن حظرني لذلك رضيت بأقل الحلول.

وتوجهنـا إلى دارها، كانت الدار مميزة، تـترك فيك انطباع بأن الأسرة السـاكنة أسره كريمة ومنظمة وميسـورة الحال وليست فقيرة، أعجبتني

الزهور المزروعة في الحديقة، أنها أجمل من زهور قصري، وطرقت الباب وكانت هـي المجيبة للطارق، أول ما رأتني ذهلـت وتعجبت وتلعثمت وتوترت وارتبكت، وعادت خطوات إلى الوراء وقالت:

- جلالتك في دارنا! مرحبًا بمولاي.

دخل يامن أمامي لكي يرتب مكان للجلوس بعد أن استأذن من والدة سارة، التي كانت لا تختلف كثيرًا عن حالة سارة في الدهشة والتعجب.

ودخلنا للغرفة التي بها أبو بكر، وتبين لي أن الحزن أمرضه، وعلمنا من والدة سارة أنه لا يقوى على تحريك جسده الأيسر بالكامل، وأيضًا عندما شاهدنا تعجب مثل سكان الدار بدأ يامن بالحديث فقال:

- مولانـا الحاكم بأمر الله، المنصـور بإذن الله، عندما علم عظمته أن أبـو بكر تعـرض للظلم والإهانة مـن رجال أبو عمار، وأنـت يا أبو بكر معروف عنك النزاهة والأمانة...

وقاطعت يامن ونظرت لسارة وقلت:

- وأيضًا لمجهودك في تربيتك الحسـنة لابنتك العفيفة الكريمة سـارة، فلتفخر أن ابنتك تحبك، يا حظك يا رجل.

كانت تستحي وتنظر للأرض، فتنحنح يامن وقال:

- لذلـك قام جلالة الحاكـم برد كرامتك وكرامـة كل من ظلمهم أبو عـمار، وتم قتله علي يـد عبيد الشرى، وأيضًا سـيقوم الحاكم بإعطائكم مكافأة مالية اعتذارًا بسيطًا عما حدث في عهده وعهد حكومته.

فُرجت أســارير الجميع بما فيهم أبو بكر، لكن أبو بكر كان يبدو أنه متوجس خيفة مني ومن نظراتي لسارة، ولكني أقسم أني حاولت أن أبعد نظــري عنها طيلة الجلســة، ولكن هناك قوة غــير طبيعية تجتذبني إلى عينيها، وبعد ما قدمنا المكافأة وشــكرنا أهل البيت واتفقنا أننا في انتظار أبو بكر لكي يعود إلى عمله عندما يتعافى من مرضة ليرجع إلى وظيفته.

ذهبت ســارة معنا إلى باب الــدار، وكان يتقدمنا يامن وقبل خروجي قالت: باستحياء وبصوت منخفض:

- أشكرك.

- أحبك.

- ماذا؟!

- أعشقك.

- وأنا أيضًا.

- أنتِ أميرتي لكي الأمر ولي الطاعة.

- أني أعذبك معي.

- صدقتي أنكِ معذبتي وأنكِ وجعي الذي ليس له دواء، لأنك ببساطة سارقة قلبي وعقلي.

فضحكت وقالت وهي تنظر في عيني:

- وأنا وقعت في حبك وغرقت في قصتك ولا أريد النجاة،

تنحنح يامن وقال:

- مولاي بعد إذن جلالتك، هناك أمور في القصر كثيرة تحتاج تواجدك الآن، أرجو منك أن تسرع.

قلت لها بعد أن نظرت إلى يامن نظرة غاضبة:

- سأشتاق لكي إلى أن نلتقي ثانيًا.

- إلى الغد.

- إلى الغد.

الفصل الرابع

«راحة الحكماء في وجود الحق وراحة السفهاء في وجود الباطل»

✍ أوضــاع البــلاد (799- 1000)

بعد مقتل ابن عــمار، كان من المفترض أن يتولى عبيد الشرى منصب أمــين الدولة مكان أبن عمار، نظرًا لوعد ســت المُلك الذي وعدته لقبيلة المشــارقة، لكن أرجوان قتل عبيد الشرى في السر لكي يتولى هو المنصب، واســتطاع أرجوان إقناع ســت المُلــك والحاكم أنه الأجــدر بمنصب أمين الدولة وقد كان.

وأول شيء فعلــه أرجوان لكي يتقي شر الزمان هو توطيد نفوذه، وبما أنه ليس له طائفة، صنع لنفسه طائفة وهي مجموعة من الجند والمماليك.

وبــدأ في توزيع الأموال على الغلمان في القصر وأيضًا على بعض رجال الجيش والمصريين، وأعاد المصريين إلى مناصبهم التي فقدوها في أثناء أبو عــمار، وأعاد الكُتّاب الأقبــاط إلى الدواوين، وأيضًا لكي لا يكون له عداوة مع المغاربة، فقد تلطف معهم.

وفي أول توليه منصب أمين الدولة، كان كثير الجلوس مع ســت المُلك والتــودد إلى الحاكم، ولكن بمرور الأيام يوم بعد يوم بدأت الزيارات تقل والتودد يقل إلى أن انعدمت الزيارات والتودد.

وأصبح لا يُقدر أحدًا، ولا يُعطي اعتبارًا لأحد، والأسوأ أنه أصبح يقول الإساءة وهو في حضرة الحاكم وست المُلك.

إلى جانب أنه صار يجمع الأموال لنفســه إلى أن أصبحت ثروته تقدر

قيمتها حوالي مئتي مليون دينار ذهب، وخمسين إربًا من الدرهم، واثنا عشر صندوقًا من الجواهر، بالإضافة إلى الأنعام والجاموس والأملاك والخدم والضياع.

ولم يعد يهتم إلا باللهو، وله مغنون نساء ورجال، وتعطلت أعمال الدولة وفسدت السياسة، وكان لابد من القضاء على أرجوان.

وهنا تدخل الحاكم لأول مرة من وقت توليه الحكم للقضاء على الطامعين في السلطة.

الحاكم كان لا يريد أن يقتل أرجوان في بداية الأمر.

ففكر أن ينذره قبل أن يقتله، فبعث له إنذارًا وجاء مضمونه

« أن الوزعة -اسم الحية الصغير وكان قد أطلقه أرجون على الحاكم عندما كان صغير- أصبح تنينًا كبير»

ولكن أرجوان قد تجاهله، وهذا ما أثار غضب الحاكم، لذلك اتفق مع اثنين من الخدم زيدان (حامل مظلة الحاكم) وأخوة على قتل أرجوان.

دعا الحاكم أرجوان إلى مقابلتا في البستان الكافوري بحيث لا تراهم الأعيُن، وعندما حضر أرجوان تقدم إليه زيدان لكي يعتذر له عن انشغاله ويقبل ركبته، وأثناء ذلك حاول أن يتحسس ثيابه خوفًا أن يكون ارتدى الدرع الحديدي، وعندما تأكد أنه لا يرتدي شيئًا ضربة بخنجر في قلبه، وأقبل عليه الحاكم وطعنة برمحه، فلفظ أنفاسه الأخيرة، وبذلك استرد الحاكم سلطانه المسلوب.

✍ الحاكم

كان الليل بالنسبة لي كوابيس وفحيح ثعابين وهسهسة أفاعي، الليل ندم وجنون وأحقاد وحسرات وشك ومخاوف من الغد، أنه الليل، ولكن قبل ظهور سارة في حياتي.

أما الآن فالليل حب وعشق واشتياق وحنين، لقد اشتقت إليها ولكن لولا مصائب أرجوان المستمرة لكنت رأيتها، لا أريد أن أراها وهناك أبو عمار آخر في الدولة، أريد أن أراها وأنا المنصور الخليفة المتحكم الأول والأخير في الدولة، لا ينفذ أوامر أحد، ولا يصبر على ظلم من أجل مرضاة أحد، لذلك أقسمت أني لن أراها إلا إذا تخلصت من أرجوان وقد كان، وبات اللقاء قريب.

وبينما أنا أتذكر وجه فاتنتي وتعبيرات وجهها، سمعت ضوضاء عالية فذهبت إلى النافذة فوجدت حشود من الناس أمام القصر، وسمعت في نفس الوقت دقات على الباب فوجدت يامن وست المُلك وجبريل -حارس ست المُلك- وبعد التقصي منهم عن سبب تجمهر الناس حول القصر، علمت أنهم محتجون على مقتل أرجوان، لذلك غضبت كثيرًا لأنهم مغيبين وغافلين عن فهم حقيقة أرجوان، أنهم فقط يطلقون الشعارات الرنانة والصيحات دون أن يبذلوا مجهود من أجل معرفة الحقيقة، لذلك امتطيت جوادي وجاء يامن معي وتوجهت إلى خارج القصر، ووقفت

بجوادي أمام البوابة وقلت بصوت مرتفع لكي يسمعني الجميع:

- أن أرجوان عبدي، اســتخدمته فنصح، فأحســنت إليه ثم أســاء في أشياء فعلها فقتلته.

وتوجهــت إلى مجموعة من الناس متجمهريــن أيضًا ولكن منفصلين قليلًا عن الحشود الأخرى، فعلمت أنهم المغاربة وقلت لهم:

- أنتم شيوخ دولتي وأنتم الآن عندي أفضل مما كنتم فيه ومما تقدم.

وتوجهت لمجموعة أخرى وعلمت أنهم المشارقة وقلت لهم:

- أنتم تربية العزيز بالله ومقام الأولاد، وما لكل واحد منكم عندي إلا ما يؤاثره ويحبه فكونوا على رسومكم، وأمضوا إلى منازلكم.

فدعا لي الجميع وقبلوا الأرض وانصرفوا.

شعرت بسعادة لا توصف، شعرت أني الآن أصبحت أمير المؤمنين، وأني الآن خليفة الدولة الفاطمية ولا أدري كيف اســتطعت إقناع القبائل، ولا أدري كيف جئت بهذا الكلام الذي ارتجلت به، هل هذه كانت نوبة من نوبات جنوني.

دخلــت القصر وتوجهت إلى غرفــه الديوان الكبــير، وأمرت بإحضار الكاتب وكتب الكاتب أول مرسوم مني للشعب وكان كالاتي:

«من أمير المؤمنين إلى الأهالي وســائر المســلمين، أن أرجوان كان فيما مضى عبدًا ناصحًا، أرضى أمير المؤمنين حينًا، فاســتخدمه كما يشــاء وفيما

شاء وفعل به ما شاء، ولقد كان أمير المؤمنين يملكه، فلما أساء ألبسه النقم، وأني أنصح معاشر التجار والرعية بالعودة إلى أشــغالهم دون الاهتمام لما حدث، وطمأنتهم أني سأقوم بأعباء مهمته ومباشرتها بنفسي وبابي مفتوح بيني وبينكم».

وبعــد أن انتهيت أمــرت أن توزع عــلى جميع النواحــي والأعمال، ويكتب في الســجل ويوزع على المصلين في الجوامع والمساجد بتاريخ ٢٧ ربيع الآخر من عام ٩٣٠ هجريًا والموافق ٦ إبريل من عام ١٠٠٠ ميلاديًا.

✍ ســـارة

مرَّ عام وأحد عشر شــهرًا وأربعة أيام وتسع ساعات وتسعون دقيقة، وأنا لا أرى أو أسمع أو أتحدث معه، لقد قطع كل السبل التي بيني وبينه.

كان يقــول لي دائمًــا أن البدايــات رائعة، والأروع مــن البدايات هو الاســتمرار في الشيء بنفس جمال البداية، أن الحب شعور صغير يضيء في القلب، بيدك أن تجعله نار هائجة وبيدك أن تجعله رماد.

فهل أنتهى حبك لي؟ هل أصبح حبك لي مجرد رمادًا؟

أيجوز أن يتبــدل كل الحب والمودة التي كانت في عينيه في آخر لقاء بيننــا؟ أيجوز أن تتبــدل النفوس بهذه السرعة؟ اشــتقت إليه ولا أعرف تفسير لهذا البعد، ألم يقل إلى لقاء قريب؟

لقد عاد أبي إلى العمل بعد زيارة الحاكم لنا بشهرين كما وعد، وزرت أبي في الخزينة لعَلي أرى الحاكم أو أسمع أي شيء عنه، لكن ولا أي شيء.

حتــى أبي بعد زيــارة الحاكم كف عن الحديث عنــه أمامي، لأنه قد لاحظ إعجاب الحاكم بي فشــعر بالخوف، لذلك صــار لا يتحدث مطلقًا سواء كان عنه أو عن القصر إلا في أقل القليل.

لم يكــن أمامــي إلا ريحانة، وكنت قد أخبرتها عــن قصتنا عندما طال غيابه، ولم يكن مرَّ وقتها إلا شــهر فقط على غيابه، وهي أخبرتني بدورها أنها رأتني ذلك اليوم، لذا طلبت منها أن تســاعدني في أن أعرف ما الذي

صــار، ما الذي جعله لا يأتي لمكان لقائنا، لذلك اتفقنا أن تســأل يامن إذا استطاعت أن تقابله، وتقابلوا بالفعل، ولكن بدون جواب شافٍ لي، فيامن لا يدري، ويقول:

- أن المنصــور دائمًا متقلب الأحوال، أحيانًا تجده طيب وأحيانًا شرير، أحيانًا شارد وأحيانًا يقظ، أحيانًا عاشق وأحيانًا غافل.

وكــثرت لقــاءات بتول ويامن فقــد لمس الحب قلبهُــما، ولكن بكثرة اللقاءات قَلت الأخبار عن المنصور.

أما اليوم ومع غروب الشــمس والظلام يزحف في الأفق، ونسمة باردة تداعب الأطراف، كنت أجلس في حديقة دارنا، ورأيت شــخص يقترب من بوابــة الحديقة، ولكنه يمشي وهــو يلتفت للخلف ويمينًا ويســارًا، وكان متشحًا بالكامل بالسواد، شعرت بشيء غريب تجاهه إلى أن فاجأني عندما رأيته يلوح لي بيده وينادي باسمي اقتربت من بوابه الدار وقلت له:

- من أنت؟

- أنا الحاكم، أريد أن أتحدث معكِ قليلًا لو أذنتي لي؟

شــعرت بدقات قلبي تــزداد ويدي وقدمي ترتعش، وشــعرت إني لا أستطيع أن أتحدث، فقلت وأنا أجاهد نفسي أن تخرج الكلمات من فمي:

- انتظرني قليلًا.

ودخلت إلى المنزل واســتأذنت أبي وأمي أن أذهب إلى مريم، اعترضوا

قليلًا لأن الوقت قد تأخر، ولكني أصررتُ عليهم فوافقوا على مضض.

خرجت ووجدته ينتظرني وعندما اقتربت منه قال لي:

- هنــاك حديث طويل أريــد أن أخبرك به، ولكن هذا المكان لا يصلح للحديــث، أخاف أن يراك الناس فيظنوا بكِ الســوء، لذلك اســتأذنك أن نتقابل في مكان لقائنا.

- فقلت له حسنًا، سألحق بك إلى هناك.

ووصلنا إلى الأرجوحة القديمة مكان لقائنا المعتاد واقترب مني وقال:

- اشتقت إليكِ، قالها وهو ينظر إلى عيني.

- لقد أخبرتني من قبل، ولكن أفعالك دائمًا لا تتماشى مع أقوالك.

- أنا لا أقول إلا ما أشعر به.

- أتدري كم مرَّ علينا من الوقت منذ آخر لقاء بيننا؟

- عام وإحدى عشر شهر وأربعه أيام.

- إذا لماذا! (نطقتها وأنا لا أصدق أنه أيضًا يعد ويحسب الأيام مثلي)

اقترب مني وقال لي:

- لأنــك عندما جئت إلى القصر وطلبتــي مقابلتي، كان حديثك قاتل، شــعرت بعجزي وأني كما يقولون مجرد طفل يعتلي عرش الملك، أقسمت إني لن أراكِ إلا عندما أكون خليفة على حق، وقد كان.

- أنا لم أقصد ســوء، إني فقط كنت أشتعل قهرًا على أبي للطريقة التي

ترك بها عمله، ثم أنا حقًا لا أدري، كيف تدعى أنك تحبني وتستطيع أن تغيب عني كل هذه المدة من دون أن تراني، هل هذه قسوة أم قدرة على التحكم في النفس؟

- بلا أنه عشق ووجع وحب، أنا لا أستطيع أن أصف له حدود، فعندما أراكِ يتوقف الكون.

- ولكني على يقين أن المحظيات والجواري استطاعوا أن يجعلوا الوقت يمر عليك كالريح.

- نظر لي نظرة ماكرة وابتسم وقال:

- محظيات وجواري! ما رأيك يا فاتنتي أن من الغد ستغادر كل محظية وجارية للحاكم القصر؟ لم يخلق الذي يجعل فاتنتي تغار أو تتألم.

- أغار! أنا لا أغار من أحد أنا فقط أخبرك بما ظننت أنه قد حدث.

- أحبك (قالها وهو يبتسم)

نظرت للأرض لا أستطيع أن أنظر لعينيه أنه ساحر وجذاب، ثم نظرت للسماء وقلت له:

- هيا بنا يجب أن أغادر، صلاة العشاء قد حانت وأنا قد تأخرت على المنزل.

صار السند والظهر والدرع الذي حلمت به وتمنيته، صار سندي رغم إرهاقه الواضح عليه، رغم أن هناك شيء غامض يخفيه لا أعلم عنه شيء، رغم تقلباته المزاجية التي أسمع الكثير منها ولكني لم أرَ إلا جزءًا صغير منها.

✍ الحاكم

هــل الأرض تحررت من لجامهــا وراحت تدور حول نفســها بسرعة مجنونة مثــل المجذوب الذي يدور في حلقه زار، لم أشــعر بالوقت، كأن لقائي معها مثل طرفة عين، انقضى اللقاء سريعًا، تركتها وعدت للقصر.

ودخلــت من بوابة القصر وبمجرد دخولي أغلقوا البوابة، وبدأ الحراس في نفخ الأبواق ودق الطبول والصنوج، وكان من مظاهر التكريم للخليفة أن بعد صلاه العشاء يقوم حراس القصر، وهم من الجنود السود عددهم خمســمئة فارس، عملهم الطواف حول أســوار القصر طوال الليل، وأيضًا يقومــون بنفخ الأبــواق ودق الطبول ويُقفل الباب وترمى السلســة، ولا ترفع إلا في صلاة الفجر، يا الله ما فائدة هذا، لقد شــبعت تمثيل في هذه الحفلــة التنكرية التــي لا تنتهي طول الوقت، وعــدت أدراجي للخلف، وأمرت الحراس أني لا أريد دق الطبول والصنوج مرة أخرى.

اســتغربني الجنود ولكن نفذوا الأمر، وجــدت يامن في انتظاري عند الباب الداخلي للقصر، كان قلق بشــأني كثيرًا، أنه جميل، أخبرته أني أريده في الديــوان الكبير الآن، تعجب ولكني لا أســتطيع النوم قبل أن أنفذ ما برأسي وهذه نوبة جديدة من نوبات جنوني.

- يامن، غدًا الجمعة وأعرف أني سأصلي بجامع القاهرة -الأزهر حاليًا- لذلــك بالنســبة للعمامة أريدها من غير جواهر، وأريد ســيف فضي غير

مرصــع أيضًا بجواهر-كان الخليفة يخرج في موكب رســمي وعلى رأســه عمامة وفي يده سيف إلى أن يصل للجامع-.

- كما تأمر يا مولاي، مع أني لا أفهم لما التغيير.

- لا التغيير قادم، نحن فقط في البداية وأن يتم تعيين إبراهيم النصراني الملقــب بالريس في منصب أمين الدولة محل أرجوان، إلى جانب أني أريد رجال الدواويــن -الإدارة الحكومية- ومعهم دفاترهم، لذلك رتب معهم لقاء بعد الغد.

وأيضًا كل يوم ســأجلس في شبابيك القصر الســاعة الثانية ظهرًا؛ لكي أوزع الصدقــات عــلى الفقراء والمســاكين، ويجب أن يعلــم الأهالي هذا الوقت لكي يأتي من يحتاج إلى المال.

- ولكن يا مولاي هناك بيت الزكاة الذي يأخذ منه الفقراء والمساكين.

- يا يامن أنا لم أقول زكاة ولكني قلت صدقات، أن أبي كان دائمًا يقول «أحب أن أرى النعم عند كل الناس ظاهرة، وأرى عليهم الذهب والفضة والجواهر، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار، وأن يكون ذلك كله من عندي».

- أسمعت يا يامن؟ من عندي مثل أبي.

- زادك الله من نعمه يا مولاي.

- ويتعين حســين بن علي بــن النعمان قاضي القضــاة، وعلمت أنهم

وجدوا ستة وثلاثين ألف دينارًا من أموال اليتامى في دار محمد بن النعمان القاضي السابق، يجب الاحتياط على هذه الأموال، وتغريم الشهود الذين كانت الودائع تحت أيديهم، وممنوع منعًا باتًا إلا يودع عند الشهود مال يتيـم ولا غائب وتوضع الأموال في خزانة موجودة في بيت المال، تخصص لأموال اليتامى ويختم عليها أربعة شهود، ولا تفتح إلا بحضور الجميع.

وأيضًـا يلقب قاضي القضاة بلقـب داعي الدعاة، وهو ما يقوم بنشر العقيـدة الفاطمية ويكون له اثنا عـشر نائبًا، ويكون الاجتماع مرتين كل أسـبوع، ويكـون هناك صندوق لجمـع النجوى -ومعناهـا السر وهذه الأمـوال لدعم الدعوة الفاطميـة- وأي فرد يريد أن يشـترك في مجالس الدعوة يجب أن يقوم بدفع ثلاثة دراهم، وتكون الدعوة من سبع مراحل وليس ثلاثة، ومن يصل إلى المرحلة السادسـة يكون له عهد خاص يتولاه داعي الدعاة بنفسه.

- أنـك تبهرني طـوال الوقت، متى نظمت وخططـت إلى كل هذا يا مولاي العزيز.

- أنا لم أنتهِ يا يامن، تمنع صلاة التراويح والضحى والشـفع والوتر ولا جماعـة إلا في فرض، وتعاد صلوات القنـوت إلى جانب الصلاة، وتوقيت الصلاة يكون بالسـاعة وليس بحركة الشـمس، وينادى في المنابر من غدًا عبارة «محمدًا وعليًا خير البشر».

وبالنسبة لأهل الذمة يجب أن يتميزوا عن المسلمين بعلامات وهي الغيار: وهو وضع حزام أسود حول أوساطهم ولبس العمائم السود على رءوسهم، ويحملون صلبانًا، واليهود يحملون الخشب إشارة إلى رأس العجل، ويمنعون من ركوب الخيل والبغال والحمير، ويتميزون في الحمامات عن المسلمين، وتكون لهم الحمامات الخاصة بهم على حدة، انتهيت يا يامن.

- أمرك يا مولاي، كل ما أمرت به سينفذ.

- انتظر يا يامن، أهم قرار، أني أعتق لوجه الله سائر العبيد من الإناث والذكور والصرف فيما يملكونه مني أو من أبي كما يشاءون، وأيضًا أريدك أن تقوم بعمل حصر بممتلكات وعقارات ست المُلك وأمي وإعطائها إلى بيت الزكاة.

- لكن يا مولاي من المفترض أن تحصل على موافقتهم أولًا!

- ويحك يا يامن، أني الحاكم وهذه الأموال لوجه الله لذلك لا محل للاعتراض.

- عفوًا ولكن هم من لهم الحق في إعطائها إلى بيت المال وليس عظمتك.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا أصرخ به وأنهره، وأحذره أن كل أوامري تُنفذ، ولا مجال للرجوع فيها، لقد عادت نوبة جديدة من نوبات جنوني وببالغ الأسف أنها مع شخص أحبه، وأعلم أنه يبادلني نفس هذه المشاعر.

يـامـن

أنـا أحترت في هذا المنصور، حينًا يسـمع بل ويقتنـع بمن يخالفه في الـرأي، وحينًا أخرى من يخالفه في الرأي يكون عـدوه، لا أعلم ما دخله هـو في أموال سـت المُلك وأمه، هما فقط من لهـم الحق في إعطائها إلى بيت الزكاة، ولكن هناك أفعال كثيرة يفعلها أشـعر أنه سـيكون أسطورة تتحاكى عليها الأمم لقرون قادمة، وأوقات أشعر أن نهاية الدولة الفاطمية ستكون على يده كما قالت ست المُلك.

لا أريـد أن أنكـر أني أعجبت بـه عندما نهي عن تقبيـل الأرض بين يديه وتقبيل اليد، والانحناء بالسـجود إلى الأرض، كما نهى عن مخاطبته بمولانـا -وهو لفظ كان يجري على الألسـنة في قصور ملوك المسـلمين- وأن يكـون السـلام مقصورًا على قولهم فقط «السـلام على أمير المؤمنين ورحمه الله وبركاته» وأيضًا أعجبت به عندما حضرت معه مجلسـه مع أصحاب الدواوين، كان يناقشهم في كل بند موجود في الأوراق ويحاورهم ويحذرهـم ، وأعلمهم أنهم مراقبون، وأنه لـن يتهاون مع المخطئ بتاتًا، وأيضًا ما يدل على ظني بالخير فيه، عادته فدائمًا من وهو طفل قبل موت العزيز وهو يحمل في كمه شـيئًا من المال يفرقه على الفقراء والمسـاكين، وموضوع جلوسـه في الشـبابيك يدل على معدنه الطيـب، وأيضًا تردده الدائم على المسـجد ليلًا ونهارًا، لقد تأخـر المنصور اليوم، طال لقاؤه مع

سارة، أني أخشى عليه من معرفة أحد بالأمر، أني متأكد وبشدة من صدق مشاعره، أنه يتبدل حاله عندما يذهب إلى لقائها، يصبح مثل الطفل الذي ينتظر يوم العيد، أنه عاشق وأسير حبها.

عندما رأيت سـارة اليوم وهي مع المنصور انتابني سعادة لا توصف؛ لأني أعلم أن حبيبتي سـتفرح كثيرًا عندما تعلم بهذا الخبر السـعيد، وقد عادوا أخيرًا إلى لقائتهم مرة أخرى.

بتـول حبيبة قلبي أنها فاتنة على حق وجميلة، ودائمًا أشـعر أن لها قدسية غريبة لم أشعر بطعمها أو لذتها من قبل.

إنها ظهرت كالحلم الجميل الذي يسـعد أيامي، لقد مرت الأيام بيننا، ونحن نرتشـف من كأس العشق معًا أحبها وأهواها، لقد اشتقت إليكِ يا قرة العين، ولم يمر على آخر لقاء بيننا سوى يوم واحد فقط.

الفصل الخامس

«كوننا نعيش في قلوب من تركناهم وراءنا يعني أننا لا نموت»

✍ أوضــاع البــلاد (1000 -1012)

أهل الذمة أغلبهم نزعوا الغيار وتشبهوا بالمسلمين وساعدهم في ذلك أصدقاءهم المســلمين، لأنهم في النهاية كلهم مصريين ولا فرق بينهم وبين بعضهم، ولم يلتزم أحد بما أصدره الحاكم.

اعتــاد أهل الذمة من أيــام العزيز على الاحتفــال بأعيادهم بحرية، وكانت الدولة تطلق المأكولات والملابس للموظفين من أهل الذمة والمسلمين.

ففي ليلة الغطاس كان القبط يخرجون من كنيســتهم، ويســيرون في الشــوارع يقرأون الترانيم ومعهم الصلبان والشموع، إلى أن يصل الموكب إلى شــاطئ النيل، ثم يقف الأســقف ويخطب، ويغطس القبط في النيل ليتطهــروا، وكان المســلمون يغطســون معهــم ويبالغ النــاس في المأكل والمشرب وفي العزف.

وهــذا أغضب الحاكم وأيضًا ما زاد من غضبه أنهم لم يلتزموا بالغيار، فأعطاهم مدة للالتزام بما أمرهم به، لكنهم لم يستجيبوا.

سـارة

إني في طريقي إلى لقاء المنصور أو الحاكم كما يقولون له، الرجل الذي اخترته أو اختارني أو جمعنا القدر، إني على اسـتعداد أن أهب له حياتي، أغلقت قلبي عليه ولا أرى رجلًا في الوجود غيره، أنه أصبح عشـقي وقد أقسـمت بيني وبين نفسي ألا أكون لأحد غيره، له قلبي وعقلي وجسدي، أنه الحب والعشـق والفرح والدنيا والسـعادة، كلما وقعت في مشـكلة شـعرت بيده تخرجنـي بلطف، وكلـما أغلقت الدنيـا أبوابها في وجهي فتحت لي سـبيلًا للنجاة، وكلما وضعـت الدنيا الأغلال في يدي وأحكمت على الغلق شعرت بك تنجدني منها.

كان موعدنـا العـاشرة ولكنه أكد على أن أحـضر متأخرة، لكي يكون هو في انتظاري وليس العكس، كما أعشـق حبه للتفاصيل، ورأيته وبدأنا حديثنا أمسك يدي وقال لي:

- اشـتقت لكي كثيرًا يا حلوتي، أن اشـتياقي لكي كاشتياق الغائب عن وطنه، اشتياق الظمآن إلى الماء، اشتياق الجوعان إلى الطعام.

ابتسمت له وقلت له:

- أصبح الحاكم شاعرًا.

- أنـتِ مـن جعلني هكـذا، أني أصبحت كالعجين في يـدك تنظمينه وتصنفينه وتشكلينه كما يحلو لكِ.

- لا تقلل من شأنك، أني أسيرة حبك وعشقك ولا سبيل للفرار من هذا الأسر، ولا أستطيع أن أتخيل حياتي دونك.

- وأنا لكِ يا جميلتي.

- عنـدي لكِ مفاجأة، لقـد أصدرت قرار من اليوم، أني لا أريد جواري أو محظيات أو خليلات، لأني لا أريد غيرك في حياتي.

كدت أقفز من الفرحة، وكان قلبي ينبض، بعنف ولكن تمالكت نفسي لكي لا يشـعر بكبر أو غرور أكثر من شـعوره بنفسـه، وقلـت له بغرور يتناسب مع جلالته:

-الأمر لم يكن يشغل بالي.

ابتسم ونظر إلى عيني وقال:

- يـا لله! أتعلمـين أمرًا أن ثقتك بنفسـك وكبريائك وتمـردك هو ما يعجبني فيكِ.

وأردف وكأنه سيخبرني بإنجاز من إنجازاته العظيمة:

- لقد قمت أيضًا بمصادرة أموال سـت المُلك وأمي وأموالي، وإعطائها إلى بيت المال، الآن صرت مثلك بدون أملاك، أنكِ أصبحتِ أغنى مني.

استغربت كثيرًا مما يقول لذلك قلت له:

- لماذا فعلت هذا؟

- لكي أصبح مثلي مثل أي شخص في دولتي، لأن هناك الكثير من الناس تحتاج إلى أموال.

- لا تخلق من عقلك جهاز تعذيب، ولا تجعل من ضميرك جلاد، أرحم نفســك، ولكن أخبرني أولًا كيف أقنعت ست المُلك والملكة بإعطاء جميع أموالهم إلى بيت المال.

- أني لم أقنع أحدًا، أنا فعلت هذا من تلقاء نفسي.

لم أصــدق ما أخبرني بيه، من يظن نفســه، تراجعت للوراء وقلت له: ماذا؟!

- كما أخبرتك فعلت من تلقاء نفسي، لماذا تندهشين هكذا؟!

- كيف تتصرف فيما لا تملك، هذه أموال وممتلكات ست المُلك وأمك أنهما من عليهم أن يوافقوا أو يرفضوا.

- أنــا حقًا لا أعرف لما أنتِ ويامن تتحدثون مثل بعضكما، وهل عمل الخير به استشارة؟

- أنــا لا أتحدث مثل أحد، أنا أتحدث بالحق، وإذا كان خير كما تقول فهما فقط من يحددون وليس أنت، أنك لك حق التصرف فيما تملك فقط.

غضب كثيرًا وأحمر وجهه وقال صائحًا:

- لا تتحدثي معي بهذه بالطريقة مرة أخرى، أنكِ أمام الحاكم بأمر الله.

لم أشــعر بنفسي إلا وأنا أصرخ مثله، شعرت وكأن الليل هجم عليّ في وضوح النهار وكأن الشيخوخة دهمتني في عز شبابي، كيف يتحدث معي هكذا وأنا حبيبته!

قلت له وأنا أنظر له نظرة غاضبة:

- أنــت هنا المنصور حبيبي فقط، أما في القصر فأنت الحاكم ولا شيء غير ذلك، لكل مقام مقال يا منصور.

وكدت أن أرحل لولا أنه أمسك بيدي وقال لي:

- أعتذر، حقا أعتذر لم أقصد.

- لا عليك ولكني سأرحل.

- ألم يكفِ اعتذاري لكِ.

- يكفي طبعًا، ولكن الوقت يمر بسرعة البرق، وأنا من ســيُعد الغداء اليوم، لذلك يجب أن أغادر.

- أميرتي ستطهي لأحد غيري، أني أغار.

- أتغار من أبي وأمي.

-أغار عليك من نفسك، وماذا ستطهو حلوتي إذًا؟

- أرز وملوخية ودجاج

وقبل أن أكمل كلمة دجاج تحول المنصور إلى وحش كاسر واستشــاط غضبًا، وأمسكني من ذراعي بقوة، وقال وهو يصيح بصوت مرتفع:

-ملوخية! ألا تعلمين أنها أكلة معاوية المفضلة، وأنه من أعداء دولتك التي بالمصادفة حبيبك هو حاكمها.

- اه! اتركني ذراعي يؤلمني، لا أعرف لا أعرف، أترك ذراعي سينكسر في

يديك، وحتى إذا كنت أعرف ما دخل الطعام في الحكم والسياسة والدولة والحاكم وحبيبي.

ترك ذراعي وهو يصرخ بأعلى صوته ويمشي أمامي ذهابًا وإيابًا وقال:

- ما دخل الطعام في الحكم والحاكم! الموضوع موضوع تقدير واهتمام بالتفاصيل التي يهتم بها حبيبك، احترامًا لمذهبة ودولته التي يحكمها، أني عندما شعرت بمجرد غيرة في عينك أصدرت قرارًا أن لا جواري بعد اليوم، مجرد نظرة في عينيك غيرت حياتي.

- اسمعني يا منصور جيدًا، اخرجني خارج هذه الدائرة من فضلك

- عــن أي دائرة تتحدثين؟ أنا أتحدث عــن تقدير وحب، وهذا ليس بالكلام أنه بالفعل وأنتِ تتحدثين عن دوائر.

- أقصد دائرة السنيين والفاطميين، الصراع الذي بينهم الذي لن ينتهي، والتفرقة بين الملبس والمأكل وطريقه الأذان ومنع صلاة التراويح وغيرها.

كلهــا أمور ظاهرية ليس فيها شيء جوهــري، أنا لا أريد أن أدخل في هــذه الدائرة، وأيضًا لا أجبرك أن تخرج منهــا، لك مطلق الحرية الكاملة فيما تأكل وتشرب وأنا أيضًا.

كان يســمعني وهو مندهش ومصدوم مــن حديثي، وقال لي بصوت يملأه الحسرة والحزن:

- لم أكن أظن أن يكون هذا ردك على حديثي لكِ.

- وماذا كنت تظن، أنا أخبرك أني لن أأكل ملوخية بعد اليوم.

- لا أســتحق أن تفعــلي هذا من أجــلى، تعلمين شــيئًا، لم أكن أظن أن الملوخية فقط هي ما ســتفعلين من أجلى، تخيلتك ســتطلبين مني أن تحضري مجالس العلم لكي تكوني فاطمية مثل حبيبك، بل ستجعلين أباكِ وأمك أيضً، وأصدقائك.

- أهذا ســبب حبك لي؟ هل أنت تريد أن تستعملني لنشر دعواتكم، سحقًا لك أنت ودعوتك ودولتك.

- ما الذي تحاولين قوله؟ أنا أستعملك؟!

- أتعلم شــيئا يا منصور لو انطبقت السماء رأسًا على عقب لن أكون في مذهبك، أتعلم لِمَ؟، لأنكم تختلفون في القشور ونسيتم اللباب، أصبح الإســلام محل خلافنــا، اختلفنا فيه، وعليه أنتم تحرمــون التراويح ونحن نقيمها، أنتم تفضلون عــليّ عن معاوية ونحن نحب الاثنين، خرجتم من سماحة الإسلام إلى أنواع من التزمت والغطرسة السخيفة.

لم يــرد على حديثي وكان ينظر لي بســخرية، فغادرت وكانت الدموع تبلل وجهي، وكنت أسمعه خلفي وهو يصيح ويقول:

- سارة انتظري لم أنهِ حديثي.

لم ألتفت إليه، وعدت إلى داري.

ست المُلك

عندما استيقظت من نومي أدركت أني ما زلت نائمة في بيت عبد الله ابــن عمي وزوجي في الخفــاء، يجب أن أبدل ثيابي وأذهب للقصر لكي لا يشــعر بي أحدًا، أن عبد الله نائم كأنه ميت، قمت بهزه يمينًا ويسارًا لكي يستيقظ وقلت له:

- عبد الله استيقظ سأنصرف الآن.

- لمــا يــا حبيبتي، فلتبقــي قليلًا (قالهــا لي وهو يجذبنــي من يدي) فسحبت يدي وقلت له:

- عبد الله استيقظ، يجب أن أنصرف الآن لكي لا يشعر بنا أحد، وقلبي يحدثني أن هناك مصائب حدثت أو على وشك الحدوث في القصر.

فأخيرًا قام واعتدل في جلسته على السرير وقال لي:

- لم تشعري بذلك يا حبيبتي.

- لا أعلم ولكن يامــن والحاكم يجتمعون كثيرًا هذه الأيام، وبعد كل عدة اجتماعات ألاحظ أمورًا جديدة قد حدثت وأعلنها ويريد من الشعب تنفيذهــا من تاريخ إعلانها، كل هذه الأمور وأنــا لا أعلم شيء عن هذه الأمور إلا وقت إعلانها وكأني مثل العامة، ولست الملكة ست الملك أخته.

- لما لا تحاولين أن تتحدثي مع يامن لكي ينظم إلينا ويكون في صفنا.

- يامــن ليس الحارس الشــخصي للحاكــم فقط، أنما أيضًــا هو أقرب

صديق له، وهما أصدقاء من وقت طويل، مع أن يامن يكبر الحاكم بعشر سنوات، ولكن يامن يحب الحاكم كثيرًا.

- نعم أعرف ولكن الحاكم متقلب الود، فقد كان أقرب أصدقائه وهو صغير عــمار، ومن وقت تقلد الحكم وهو لم يفكر في زيارته أو الســؤال عنه، نحن فعلًا في حيرة، وكنا في غنى عنها لو كنتِ أخذتِ بكلامي، ما أخذ الجد في أن أبقي الخليفة.

- وهل هذا كان بيدي، كل الحق على أرجوان لا رحمه عليه، هو من أسرع وبايع الجميع ليكون المنصور خليفة، إني يا عبد الله لا أكره أخي.

ولكنه أخي لذلك أنــا أكثر واحدة تعرفه أنه مغرور ومتسرع وأهوج، وهذا لا يمنع أنه طيب القلب وكريم.

- هــوني عليــك يا حبيبتــي، الآن كل ما يجب أن تقومــي بيه هو أن تراقبيه، وتحاوطيه لكي نستطيع أن نتحكم في أفعاله قبل حدوثها.

- أخشى ألا أستطيع بعد الآن.

- لِمَ؟

- لأنه أصبح عنيدًا ويصعب إقناعه، حفظه الله وهداه.

وتركت عبد الله وذهبت إلى القصر، كل يوم يمر أتأكد أكثر أني لا أحب عبد الله، ولكني أحتاج رجلًا في حياتي فقط.

موسى

الألم هو البوابة الأعمق للإنسان، والمأساة هي المنقي الأعظم للحياة؛ لأنها تزيل طبقات الزيف والخوف والكبر العالقة بذات الإنسان، وتعيدنا إلى ذكائنا وعقلنا الفزّ، إذا كانت لديك الشجاعة للتعمق فيما يؤلمك، فللمعاناة فوائد كثيرة، تتضمن التعاطف والأصالة والتواصل والوضوح.

تقول لي أعجبتك هذه! وهل هذه مثيرة أم لا؟!

لا أعلم كيف تفكر هذه الفتاة، ألا تعلم أني أذبل من الداخل والخارج، لا تعلم أن مجرد تخيل أن حبيبتي مع رجل آخر في بيتًا واحدًا يقتلني، والأصعب أنه ليس أي رجل فهو زوجها وهي حقه وطوع أمره وأم أولاده.

يقتلني هبوط الليل وتخيل أن حبيبتي بين ذراعي رجل آخر، ويحرقني أن هذا الرجل له حق مضاجعة حبيبتي متى يحلو له.

في بعض الأحيان ألوم نفسي لماذا أحب امرأة ليست حقي من البداية، وليست لي وألوم تسرعي ورعونتي التي جعلتني أقع في حب امرأة متزوجة.

أني أحب بل أعشق امرأة خائنة، وأعلم أننا لم نفعل شيئًا فاحش، ولكن خيانة المشاعر أعظم قدرًا من خيانة الجسد.

وعندما أعيد حساباتي، ألوم نفسي مرة أخرى على وصفي لها بخائنة، فهي لم تدخل إلى حياتي، ولكني أنا من بدأت وتقربت منها، وهي طالما كانت تغلق باب الدخول إلى حياتها في وجهي كثيرًا، وأنا أصر وأصمم أن أكون ولو جزء بسيط في حياتها إلى أن أصبحت كل حياتها.

إني كل ليلــة أحلم بها وهي نائمة بجواري، وأضمها بذراعي وأمســح بيدي على شــعرها، وأخبرها بصوت مفعــم بالإثارة أني أريدها، وأريد أن ألتهم شفتاها وأذوب عشقًا في رحيق جسدها.

مع العلم أني لا أريد أن تنتهي هذه المعاناة، رغم من وصفي لها أنها معاناة ولكني أريدها وأحبها وأعشــقها، أنا لا أريــد الفرار منها بل أريد الغرق فيها أكثر.

أن كل مــا بداخلي يمنعني من نســيانها يمنعني مــن هجرها وتركها، كل شيء في حياتي يريدها يعشــقها ويحبها، أنها حلمي القادم والمستحيل أيضًا.

الفصل السادس

«لا تسمح لنارك أن تهدأ أو تنطفي، أو تشتعل بشرارة ليس لها بديل»

✍ أوضــاع البــلاد (1002-1004)

دخل أبو ركوة مصر وتوجه إلى الإسكندرية، فخرج عليه جيش الحاكم وهزمُه، فانتشر جنود أبو ركوة في قرى مصر.

وكانوا ينهبون الأموال ويهتكون أعراض النساء، ولكن لم ينتهِ الأمر عند هــذا الحد، فتوجه أبو ركوة إلى الجيزة وقد هُزم أيضًا، فاتَّجه إلى الصعيد لعلــه يأتيــه المدد من كل مــكان، خصوصًا من عرب الصعيــد، وعاد أبو ركوة ومعه ســبعين ألفًا من الفرسان والرجال، وحدثت موقعة فاصلة بين الفضل بن الحســن الذي منع العرب من المشــاركة مع أبو ركوة، فحارب الحسن بمفردة، فهُزم أبو ركوة وهرب إلى النوبة وجاري البحث عنه.

فكر الحاكم في أول الأمر أن يســير على أســس الإســلام الأول، فجمع مجلسًــا للشــورى من أعيان الدولة، ولكن ما لبث أن أبطله، وبدأ يعتمد على نفسه في شئون الدولة.

وكان يفرق الأموال الكثيرة على رجال الدولة بدون حساب، مما جعل ناظــر ماليته يتوقف عــن الصرف خوفًا على أمــوال الدولة، وكذلك منح الألقاب لســائر موظفيه بجميع أنحــاء الخلافة، بحيث لم تنتشر من قبل كما انتشرت في عهده، كما كان يعاقب بسلب لقب الشخص مدة طويلة، ولا يدعــوه بهذا اللقب، فيصير الرجل في حزن وبكاء حتى يرد عليه لقبه، فيكون ذلك عيدًا على الرجل.

وكان أيضًا يعتمد اعتماد مباشر على أصحاب الدواوين، فيدخلون إلى حضرته ويستأذنونه فيما يحتاجون إليه ويأمرهم بما يريد.

ومع حرص الحاكم الشـديد في اختياره لوسائطه كان يراقبهم مراقبة شـديدة، وأرسـل إليهم العجائز الذين كانوا يدخلون إلى بيوتهم من غير علمهـم، ليخبرنه بتصرفاتهم وأدق ظروف حياتهـم، فأنهم كثيرًا ما كانوا يهملون في عملهم، ويشك في ولائهم.

وأول من قتل من الوسطاء هو فهد بن إبراهيم النصاري، وتولى بعده ابـن العداس، ومن أبرز هـذه الفترة أن الحاكم طالـب كُتاب الدواوين بحساب ما كانوا يتولونه، فثبتت السرقة على بعض الحكام.

فتقدم بمعاقبتهم، فقُطعت أيدي بعضهم بالشـطور على الخشبة من وسط الذراع، وكان حدث عظيم جعل الكثير من الناس يخشون الحاكم.

مـن أجل رد المظـالم قام بقتل ثلاثـين ألف كلـب في القاهرة، وهذا بحجـة أنهم ينبحون طوال الليل، ويقلقون الناس في نومهم فيتأخرون في الاستيقاظ لعملهم.

كان ينظر الحاكم فيمن له حاجة، فمن شـعر أنه يستحق حدد معه الموعد الذي سـيعود فيه، ولكن مع مرور الوقت كان ينشـغل عن النظر في المظالم، فجعل التقاضي إلى قاضي القضاة أو القاضي العادي، وقد جعل ديوان للنظر في المظالم ويطلق عليه الديون الخاص.

كما أمر باستخراج كنوز مصر من الآثار القديمة لصرفها على الناس.

أصبح الناس في عهده آمنين على أموالهم: فكان التجار يتركون حوانيتهم مفتوحة ولا يخافون عليها، وفي مرة وقع من شخص، كيس فيه ألف دينار عند جامع احمد بن طولون، فاستمر في مكانه أسبوعًا كاملًا لا يجرؤ أحد على أخذه.

وبدأ ينتشر بصورة كبيرة أن الحاكم يعرف الغيب.

وقام الحاكم بإلغاء ضريبة المكوس -وهي ضريبة فرضت على السلع والناس- وأيضًا لكي لا يقوم قاضي القضاة بالخيانة ضاعف أقطاعه وصلاته، كما منحه من مظاهر التكريم الشيء الكثير؛ فجعل له بطانة كبيرة من الشهود وحرسًا وغيره من مظاهر التكريم.

ولكن في النهاية سرق الحسين بن النعمان وتسبب في موت أحد الرعية لسبب تافه.

كان للفاطميين في مصر عيد اسمه عيد غم – وهو اليوم الذي بايع الرسول فيه سيدنا علي، وأيضًا يحتفلون بيوم مقتل (الحسين بن عليّ) في يوم عاشوراء وفي هذه الأيام كانت تعطل الأسواق وتغلق الدكاكين وأبواب الدور.

وحول الحاكم دار تسمى دار الحكمة أو دار العلم، التي كانت مُزودة بالكتب من كل أنواع العلوم والآداب والعقائد من أيام العزيز إلى دار

أخرى، ولكن كانت تشبه الجامعة تتكون من عدة كليات، كان يتوافدون إليهـا الطلاب من شـتى الأقطار بـدون تفرقة بين الجنـس أو المذهب، يتلقون فيها أصول الدعوة الشـيعية وعلـوم مختلفة مثل المنطق واللغة والجبر والحساب والأخبار والطب وينسخون أو يقرأون، وقد كان الحاكم يذهب إلى هذه الدار ويستمع ويتناظر العلماء بين يديه.

ويعتبر مـن أهم الدراسـات انتشـارًا في هذا الوقت هي الفلسـفة الإسلامية، بسبب وجود الفيلسوف ابن سينا وقبله الفارابي وقبله الكندي، لذلك كانت الفلسفة في أوجها، وأظهر الحاكم حبه وميوله إلى الفلسفة.

وفي الفترة السـابقة أقبل المصريين على الدعوة الفاطمية رجالًا ونساء كثيرون، وكذلك وفد إلى مصر بسبب الدعوة الفاطمية عدد كبير من الناس من مشارق الأرض ومغاربها، وكانت الدولة تنفق عليهم الأموال الطائلة.

أصدر الحاكم أمرًا لأهل الذمة بعد احتجاجات كثيرة من قبل المسلمين أكثر من النصارى بشـأن مـا يرتدونه من صلبان وأخشـاب ثقيلة، لذلك أصدر قرار بعدم ارتداء الصلبان والنواقيس.

ففرحـوا أهل الذمـة ولكنه لم يكُمل فرحتهم، فأصـدر قرار آخر بأن يمحو الناس الصلبان المرسومة على أيدي الناس وسواعدهم، ومنعهم من التظاهر بالأعياد، ومنع الأسـاقفة المصريين من السفر إلى النوبة والحبشة أو حتى مكاتبة ملوكهم، حتى بلغ من قلة أسـاقفة هذه البلاد أن قفلت كنائسها أبوابها.

جعــل الاحتفال بذكرى موت الحســين في الصحراء لأن في أثناء خروج الناس في الشوارع كانت أيديهم تمتد على أمتعة الباعة.

كانت هناك مشادة كلامية بين الحاكم وست المُلك.

ست المُلك

عندمــا توجهت إلى القــصر رأيت جــبران فكان يبدو عــلى ملامحه الغضب الشــديد والحزن، فأشرت عليه ليقــترب وتوجهت إلى غرفتي في القصر، وبعد ما جلست معه لكي يخبرني بما حدث قال لي الآتي:

- يا مولاتي الحاكم خرج من طوره، واسمحي لي بل خرج عن رشده، لن أخبرك بالأفعال والتبديلات التي فعلها فيما يخص الحكم، ولكن ســأخبرك بما فعل في حقك أنتِ ومولاتي الملكة الأم.

- لا داعي للتشويق في الأحداث وأنا وقتي لا يسمح، ماذا فعل هذا الأهوج؟

- لقد قام بالتبرع لبيت المال بكل ممتلكاتك أنتِ وست الملك.

- ماذا فعل؟!

- كما أخبرتك يا مولاتي صدقيني.

توجهــت إلى جنــاح المنصور ولم أنتظر أن يخــبروه أني بالخارج قمت باقتحام جناحه عليه، فتفاجأ ولكنه ابتسم، كان يعلم أنه أغضبني ويريد أن يتودد لي لكي أسامحه ودار الحوار بيننا كالتالي:

- كيف تجرؤ تتحكم فيما لا تملك؟

- لتهدئي لكي نتحدث.

- لن أهدأ ولن نتحدث بل سيعود كل شيء إلى أصله.

- كيف؟

- أنها ليست مشكلتي، بل مشكلتك أنت.

- أتريدين الحاكم أن يتراجع عن قراره الذي اتَّخذه.

- هــذا لو كان قرارك من الأســاس أنه قراري أنــا، حتى لو حاولت أن أقبــل أنك تبرعت بــكل ممتلكاتي لبيت المال، كيف تتــبرع بالقصر الذي أهــداه لي أبي، كيــف تفعــل ذلك أنه لي وأنــا أحبه، أنا حقًــا غير مدركة ما فعلت أو مســتوعبة، وإذا فعلت ذلك في أشــيائي كيف تفعل ذلك في أشياء أمك، يا منصور أمك حرة وأنا حرة، وأنت لست وصي علينا، ولست متحكم في أشيائنا.

- هل انتهيتِ؟

- نعم.

- لن أتراجع عن موقفي، وقصرك ســيعود وسأشــتريه من بيت المال بالنقــود التي ســأتحصل عليهــا نتيجة خدمتي للدولــة، وغير القصر لن تحصــلي على شيء وهذا كرم زائــد مني، وإذا لم تخرجي الآن وتكفي عن الكلام في هذا الموضوع سأحرمك أيضًا من القصر.

- لم أنتهِ من حديثي.

- ولكني انتهيت.

وأكملت كلامي كأني لم أسمعه فنظر لي بغضب ودهشة.

- لا أريد أن تعود إلي الممتلكات مرة أخرى، حسنًا، أهم شيء بالنسبة إلي القصر، فقد شعرت أنه يشعر بالخطأ الذي ارتكبه، فأردفت:

- أريد أن أعرف لما أطلقت سراح الخدم والجواري؟

- هل هذا شيء يخص ممتلكاتك أنتِ والملكة الأم أيضًا؟

- لا ليست من ممتلكاتي ولكن ستتحدث عنك الناس بسوء إذا لم يكن لديك جواري ولا نساء ولا زوجه، فماذا أذًا! أنت تفهم ماذا أقصد.

- وأنا لا أريد.

- لا الأمر ليس بهذه السـهولة، أنها سـمعتك أمام الناس إذا كنت لا تريد جواري إذا تزوج، أو هل هناك مشكلة حقًا لديك أخبرني، أكيد هناك علاج ما.

- ماذا تقولين أجننتي؟!

- لم أجن ولكن أخبرني لماذا لا توجد نساء في حياتك؟

- ليس هناك سبب محدد ولكني لا أريد جواري.

- إذا تزوج لكي يكون لديك ذرية تحمل اسم عائلتنا وتكمل المسيرة.

- سأفكر في الأمر.

- أترك الأمر لي ولا تشغل رأسك بهذه الأشياء الصغيرة.

- إذن الأمر لكِ، سامحتني أم لا؟

- يعود القصر أولًا، وأرجوك يا أخي فكر في الأمر ثم استشر ثم احكم

- سأفعل.

وخرجت من عند المنصور وأنا كما أنا، مازال قلبي مليء بالغضب منه.

ولكن سـأحاول أن أتجنب عداوته لكي تكـون جميع الأمور في يدي، أعلـم أنه أخي الصغـير ولكنه يخيفني، عينيه ونظراتـه تخيفني، أوقات كثيرة أشـعر أن عينيه بهما وحوش وأشباح، أن جسدي يرتعد من الخوف ويـداي تكون مثل الثلج، عندما يقترب مني لـكي يخبرني بأي شيء قلبي يرتجـف من الرعب، ولكنـي دائمًا أحاول أن أتماسـك وأتظاهر أني أخته الكبرى، وأني أنا الأقدر والأعلم بأمور الدولة، وأوقات أخرى أشعر أني أريد أن أقتله لكي أرتاح من هذا الإحساس بالخوف، عندما يقول لي أنه يحبني أشعر كأنه يقول أني أبغضك، ولكن الأكيد في الأمر أن هذا الأحمق سيكون خراب البيت على يديه .

الحاكـم

عندمـا تحدثت مع سـت الملك شـعرت أن جزء كبـير في داخلي قد سكن، واعترف أني كنت أشعر بالخوف منها، وأحمل على كتفي ثقل هذه المقابلـة، ولكنها مرت وهـذا يكفي، لا أعلم لما فعلت ذلـك لعلها نوبة جديدة من نوبات جنوني، كان عند سارة الكثير من الحق عندما أخبرتني أنـه لا يجوز أن أتصرف في مال ليس مالي، ولكني تخيلت أن سـت المُلك والملكة سـيفرحون عندما أُقدم على خطوة كهـذه، ولكن مازالت الدنيا لديهـم أغلى من الأخرة، أريـد أن أتحدث مع يامن في أمور الدولة هناك الكثير من الأمور التي يجب أن أقوم بحسمها، واستدعيت يامن والكاتب وبدأنا جلسة التغيير.

- يامن أريدك أن تتلقى مني هذه التغيرات وتقوم بتنفيذها من وقت خروجها من فمي.

- أمرك يا مولاي.

- أريد أن أُكون مجلس للشـورى لكي أستشـيرهم قبل فعل أي شيء، هذه من نصائح سـت المُلك، وأشـعر أني أخطأت في حقها، لذلك سأكون مجلس للشورى لأستشيرهم قبل تنفيذ أي خطوة.

- أنه الصواب يا مولاي.

- وأريـد مجموعـة مـن العجائز من النسـاء يحـضرون إلى القصر،

وتجتمع معهــم وتجعلهم يدخلون بيوت أصحــاب الدواوين ويتعرفون على نسائهم، ويكون شغل العجوز الشاغل هو مراقبة ظروفهم وأحوالهم، لكي أستطيع محاسبتهم.

وهناك موضوع آخر، ســمعت أن إبراهيم النــصراني يفضل النصارى على حساب المسلمين.

- لا أعتقــد يا مولاي فإبراهيــم النصراني عادل، وأيضًــا من يخبرك يا مولاي يحمل في قلبه مرض تجاهه أنهم أعداء النجاح.

- وما تفسيرك إلى إسناد ست وظائف للنصارى دون المسلمين؟

- يا مولاي أن أهل الذمة منذ زمن العزيز وهما على دراية تامة بشئون الإدارة، إلى جانب أنهم يمثلون ثلث سكان مصر، لذلك رأيي أنهم الأجدر.

- ســأعفي عنه ولكني ســأبعث له إنذارًا وإذا تكــرر ذلك مرة أخرى سأعاقبه، لأننا لا نفاضل أحد على أحد، الكل سواسية.

أما بالنســبة لأهل الذمة الذين لم ينفذوا تعليماتي بشــأن الغيار، وأن يخففــوا قليلًا من مظاهر الاحتفال، فســيحملون صلبانًا ثقيلة، وبعد أن كانت طولها شــبرًا ســتكون ذراعًا ونصف، ووزنها خمسة أرطال، وختمها بالرصاص، أما اليهود فســوف يرتدون الزنانير ويحملون الخشب الثقيل، وأيضًا امنع النصارى من تقديم النبيذ في قرابينهم.

- مولاي ألا تلاحظ أنه كثير، أنهم لم يفعلوا شيء...

لم أســتطع أن أســمع أي نقد اليوم لذلك أشرت إلى يامن لكي يصمت قليلًا وأردفت:

- يامن، حقا لا أريد غير أن أسمع كلمة واحدة وهي: أمرك يا مولاي.

- أمرك يا مولاي.

- أنا من سأســتمع إلى الناس في نظر المظالم -وهي لأي شــخص حصل على تعدي أو فســاد من رجال الدولة، فيرفع أمــره إلى الخليفة مباشره- وســنغير مكان نظر المظالم ســيكون عند باب الذهــب -وهو أحد أبواب القصر الكبير وقد خصص مكان يطلق عليه السقيفة- أشعر أن مكان نظر المظالم هناك سيكون جيد.

- وهل ستغير يوم السبت كما كان في أثناء جوهر؟

- نعم ســأجعل النظر في المظالم على ثلاثة أيام: يوم الســبت للكتامين المغاربة، ويوم الاثنين للمشارقة، ويوم الخميس لسائر الناس كافة.

- أريــد مجموعة من خــيرة العلماء مــن المنجمين لمعرفــة التقويم والنبوءات الجوية ومعرفه الكسوف والحادثات.

- أريدك أن تضيء شــوارع وأســواق وحوانيت ومحال القاهرة خاصة ومــصر عامــةً، لأن بوجه عام مصر غارقة في الظلام ليــلًا، وأيضا من أجل زيادة حركة البلاد المعيشية، ويمنع منعًا باتًا بداية من الغد أكل الملوخية والجرجير والقرع والدينس والترمس العفن ويمنع عجن الدقيق للرجال.

- ممكن من سؤال يا مولاي؟

- بسرعة يا يامن لكي لا تطير الأفكار من عقلي.

- هل القرار هذا بسبب سارة؟

- ليســت سارة في الأســاس ولكنها لفتت نظري إلى هذه الأشياء أنهم يأكلون الملوخيــة، وهم يعلمون أنها كانت الأكلــة المحببة لمعاوية، لقد ظننت ســارة تقدرني وتقدر الدولــة التي تنتمي إليها وتقدر حبيبها وهو حاكم هذه الدولة، من المفترض على ســارة أن تقوم بتدعيمي وتشجيعي لــكي ننهــض بالدولة معًا، ولكن من الواضح أن حبــي لها جعلها مغرورة لذلك ســأكسر أنفها، أتصدق يا رجل أنها لا تريد أن تستغنى عن الطعام فقــط من أجلي، ثم تدعي حبي! لذلك ســأمنعه عن مصر بالكامل، لنرى كيف ستأكل هذه الأكلات مرة أخرى.

في بعــض الأحيان يا صديقي خيالنا يصور لنا أشــخاص على أنهم الماء والنــور والهواء والراحة والســكينة، ولكن من الواضــح لا توجد راحة في الدنيــا، وكن الحياة كلها صحراء جرداء لا ماء ولا ظل بها، لا يوجد بها إلا كرابيج الشــمس الملتهبة، أن أكلهــا و إصرارها على أكل وجبة تعد بمثابة خيانة لي، ومجرد خيانتها لي تجعل عقلي مشــلول عن التفكير، كأن يدي اليمنى خانت يدي اليسرى، لا أصدق ولا أستوعب إلى الآن، نظرت له كان على وشك أن يقول شيئًا، لكني أشرت له أن يصمت، وقلت له: لنعود إلى

قرارتي، أريد موضوع إضاءة الشوارع أن يكون أولًا، وبعدها موضوع الطعام.

- أمرك يا مولاي، ولكن عاهدني أن نتحدث في موضوع سارة في وقت لاحق.

- أعدك، أريدك أيضًا أن تحضر لي كتاب ابن سـينا، سـمعت أنه رائع، فأنـا أعلم أنه تلميذ للفارابي والكنـدي، وأيضًا يجب أن نكمل بناء جامع الأنوار، وتحول كنيسة الراشدة إلى جامع الراشدة فيعجبني كثيرًا مكانه.

- أمرك، ولكن ألا تريد أن تتشـاور في أمر الكنيسة في مجلس الشورى الذي ستقيمه أولًا.

- موقعه أعجبني وأريده أن يكون جامع، وسنقوم بتعويض مناسب للبطريرك.

- كما تريد يا مولاي، ولكن هناك خبر سيء عن أعداء الدولة، قام أحد الأشـخاص ويدعى الوليد ولكن يطلقون عليه لقب أبو ركوة بعمل ثورة في برقة، فقد استطاع أن يجمع عناصر غاضبة من البربر والقبائل العربية لكي ينقلبوا على الدولة.

- وكيف استطاع أن يفعل ذلك؟

- أنـه معلم، والمعلم يتعامـل مع عقول البشر، كالعجين فيسـتطيع أقناعهم بأي شيء، وكل شيء.

- بماذا يقنعهم؟

- يحرضهم عليك من أجل نصرة الإسلام والثأر لأصحاب الشريعة.

- كم فات من الوقت على هذا الأمر؟

- ثلاثة أشهر.

- ولما لا تخبرني يا يامن؟

- لأننا كنا مشـغولين في الاسـتيلاء على حلب إلى أن كتب الله النصر على يديك، وبعد النصر لم أشأ أن أزعجك، ولكن الأمر تفاقم، فأدركت أن عليَّ إخبارك.

- كنت انتظرت حتى يأتوا إلى هنا يا يامن، أجهدت نفسـك بإخباري حقًا وكلفت نفسك.

أعلم أن يامن غضب من سخريتي منه، ولكنه أخطأ لأنه لم يخبرني من البداية، ولكني غير مسـتعد للجدال فطلبت منه الرحيل على أن يبدأ في تنفيذ القرارات من الغد.

في بعض الأوقات أشـعر أني أتصرف بمكر إبليسي، وأوقات أشـعر أني أتصرف بصفاء ملائكي.

ريحانة

لقد استطعت أخيرًا أن أأخذ قراري الأخير في نهاية حياتي مع مصطفى، فأنا لن أستمر هكذا، كنت طوال الوقت أؤجل الأمر، ولكني لم أعد أستطيع أن أتحمل أكثر من ذلك، وأحلت الأمر من التأجيل إلى التنفيذ.

سأقذف بكلام أمي والناس جميعًا عرض الحائط وأنفذ ما أريد أن أفعله أنا، إنها حياتي.

أنا لا أريد ظل الحائط لا أريد زوج لا يشعرني بأنوثتي المتفجرة، فأنا أعلم أني جميلة أرى ذلك في عيون كل الرجال الذين أقابلهم في حياتي، لا أريد من لا يكف حديث عن الأقارب والأصدقاء والعمل والأولاد، أنا أريد من يتحدث إلي وعني.

كنت أعتقد أن مصطفى هدية لي من السماء، ولكنه أصبح عقاب، والحق يقال إنه لم يجرحني بقول فاحش أو أنه أهانني بطول اليد أو اللسان بالعكس دائمًا يعاملني باحترام ولكن احترام فقط.

وأنا أيضًا أعامله بكل احترام وحب وأفعل الواجبات الزوجية كما ينبغي، بل أكثر مما ينبغي أني أتفنن في ممارسة العلاقة الزوجية معه، أتقمص شخصيات نساء من كل الأجناس والألوان، لكي لا أشعره بملل أو برود، كنت أهتم بكل شيء، طلباته أوامر، أفعل ما يريد وما لا يخطر على باله، أقوم بكل واجباته الاجتماعية بدلًا منه، في الغالب لانشغاله

في العمــل طوال الوقت، حتى أن أبناءه مــن المتفوقين والمتميزين وبيته مرتب ومنظم.

كان في بدايــة زواجنــا وأيام الخطوبة، حلم جميــل فارس على جواد أبيــض، وأنا كنت بالنســبة له هدف بعيد وصعب المنال لشــخص مثله، ولكنه بعد ما تزوجني ونال مني ما يريد زهدني.

إن المرأة طوال الوقت تريد من الرجل الاحتواء والحنان والحب، وعندما عاد مصطفى من العمل وتناول الغداء، قلت له:

- أريد أن أتحدث إليك في أمر مهم.

- ألا يمكن تأجيله.

- لا، للأسف الآن.

- تفضلي، ولكن أرجوك أن تسرعي لأني سأخرج مع أصدقائي، استجمعت كل شجاعتي وقوتي وقلت:

- أرغب في الطلاق يا مصطفى، أرجو الانفصال بهدوء.

- طلاق، لماذا؟ ماذا فعلت؟ أخبريني؟

- لم تفعل شيء يا مصطفى، ولكن حبي لك انتهى.

- لِمَ؟ هل أذيتك دون أن أقصد؟ أخبريني.

كان يبدو عليه المفاجأة والغضب والضيق، ولكني أقسمت ألا أتراجع أو أضعــف، لقد فات وقت التراجع والاستســلام للقســمة والنصيب أنه وقت المواجهة.

- مصطفى بدون غضب أو تذمر، أنا لم أعد أحبك، هل ستستمر مع امرأة لم تعد تحبك.

نظر إلي والدموع تنسكب من عينيه في هدوء، كنت أقصد أن أقسو عليه بكلامي لكي يفعلها ويطلقني، ولكنه نزل على ركبته وقال لي:

- إنكِ تعلمين أني أحبك، سأعترف لكي يا حبيبتي، أنا فعلا أخطأت وانشغلت عنك بأصدقائي والعمل سامحيني، واتركي لي فرصة أخرى لكي أصلح ما أفسدته.

- مصطفى هذا القرار لم أأخذه من يوم وليلة، لقد فكرت مرارًا وتكرارًا قبل أن أخبرك، حاولت كثيرًا، لا أمل.

-أرجوك، لا تقولي لا أمل ولا تجرحيني وتقولي لم أعد أحبك، أعطيني فرصة أخيرة إذا لم يكن من أجلي فمن أجل أولادنا.

لم أستطع أن أكمل في المواجهة وفي لحظة واحدة اجتاحتني آلاف المشاعر ووافقت على الفرصة، لم أعرف لما، هل أشفقت عليه أم هل أشفقت على أولادي، لا أعلم، ولكن يجب أن أخبر موسى بما وصلت إليه.

✍ بتــول

كان يامن فتى يشــع بالفتوة والوســامة والمــروءة، كان فتى يخطف الأنظــار تنظر إليــه الحوامل فيتمنوا أن يرزقهم اللــه بفتى مثله، وتنظر لــه العجائز ويقولون إنه ابن موت، وتنظر إليه الفتيات ويتنهدن بحرارة ولوعة وهن يتمنن فارس مثله.

أحببته فوق الحب حبًا، وفوق العشق عشقًا، أنه شجاع وقوي وحكيم وصبور وهادئ، يعجبني هدوئــه، وأحب تمرده، لأنه تمرد هادئ ورزين، أنه أيضًا يستحي، واستحيائه يبهرني يجعلني أغرق أكثر في حبه.

ما أجمل أن يشــاركك أحدهم الاهتمام بالأشياء التي تظن أنها لاتهم أحدًا غيرك، كم هو عظيم أن ترى من هو أكبر منك ســنًا ينزل على ركبته لتصعد على كتفيه، وتحاولان الســير معًا مجتــازا الحواجز، التي يصنعها الزمن ويخلق بها فجوات بين جيل وآخر.

كل ما يؤرق هذا الحب الجميل انشغالنا بأفعال الحاكم المزعجة، أنه يزعج سارة دومًا، أشعر أنه يحب أن يجعلها طوال الوقت في حيرة وقلق.

أنا لا أحب الحاكم هذا، ولا أســتطيع حتى أن أشــعر أنه يحب سارة مثل ما تحبه.

مــع أن يامن طوال الوقت يؤكد لي أن الحاكم يعشــق ســارة، لذلك

طلبــت منه أكثر من مرة أن يتحدث معه في موضوع ســارة، ولكنه دائمًا يخبرني أن أحوال البلاد متوترة وعلى أشدها.

ولكنه وعدني أنه سيتحدث معه قريبًا، وأنا أنتظر وسارة أيضًا تنتظر.

✍ **يــامــن**

أصبــح المنصور غريب الأطوار، لقد أصبــح يواصل الركوب ليلًا ونهارًا على حماره الأشــهب -المعروف باســم القمر- وأعلم أنه بســبب أحوال البلاد المتوترة وأيضًا بسبب حبه لسارة وخلافه معها.

لذلك يجب أن أتحدث معه في موضوع سارة وخصوصًا أن بتول دائمًا تؤكد علي في هذا الأمر.

وعندما شــعرت أن الأجواء اليوم بدأت في الهدوء، فاســتغللت الأمر وقمت بالحديث معه وقلت له:

- مولاي، لقد وعدتني بالحديث في أمر سارة، فهل أتحدث الآن أم في وقت لاحق؟

- أن أمر سارة قد أنتهى يا يامن.

ونظرت إلى الحاكم مستغربًا وقلت له:

- أتفعــل كل ذلك بمجرد أنهــا تأكل الملوخيــة ولا تريد أن تدخل في مذهبك، قال أحد الحكماء يا منصور «وبين منطوق لم يقصد، ومقصود لم ينطق، تضيع المحبة بين الناس».

- أني أخــاف عليه وأعلم أن مذهبــي أقرب إلى الله وإلى علي، وأنا لن أتزوج ألا من الشيعة، ولا أريد من تكره التقرب من الله

- وهل أنت تفعل ذلك؟! أنك الحاكم ومسئول عن راعيتك، وتعلم أن المصريــين عمومًا يشربون الخمر لأنها عادة مــن الفراعنة، هل فكرت في تحريمه على الجميع، وتعلم أيضًا أن بســبب إضاءة الشوارع التي شرعت فيهــا كثرت بيوت الفســاد والفجــور، ومن أجل اعتراض ســارة على أكل الملوخية، تحكم عليه وعليك بعذاب القلب ما هذا الذي تفعله؟

وبعد تفكير طويل وصمت قطع الحاكم صمته وقال:

- يغــرق العنب في النيــل ويقذف في الطرقــات، وتكسر جميع جرار العســل، ويتم نَهْي التجار عن بيع الزبيــب، ويقام الحد على من يشرب الخمر بلغ هذه الأوامر لرئيس الشرطة.

- أني أتحدث في موضوع وأنت تفكر في موضوع آخر، وماذا بشأن سارة؟

- بلغ جميع الناس في منشــور رســمي أن عقد قرآني غدًا، وبلغ ست الملك بضرورة أن تختار لي سيدة مناسبة قبل الغد.

-ماذا! لما تفعل بنفسك ذلك؟

- أنهي عذابي وعذابها، الحب يولد في الخيال ويموت في الفراش يقتله الارتواء، لذلك ســأقتل حبي لها غــدًا في أحضان امرأة أخرى، وهي حينما تعلم ســتتزوج رجلًا آخر، وتقتل الحب أيضًا، العطش يحيي الحب بينما الشبع يقتل الحب يا يامن.

الفصل السابع

«القواعد وضعت لكي أكسرها»

✍ الأحــداث الخارجيـة (1004- 1009)

تســبب قاضي القضاة في موت أحد الأشخاص، لأنه أمر رئيس الشرطة بضربــه ألف مرة حتى مــات، فعلموا الأهالي وغضبــوا، وخرجوا الأهالي جميعًا في جنازة هذا الشخص احتجاجًا.

وعندما علم الحاكم بما فعله قاضي القضاة توعد له وعزله من منصبة، وعين بدلًا منه العزيز بن النعمان، وكان متزوج من بنت الحسين ابن جوهر.

ولم يســتمر العزيز طويلًا، وذلك بســبب أن الحاكــم علم أنه حضر مجلس مشــهور فيه شرب الخمــر، وعين مالك قاضي القضــاة عام ألف وسبعة ميلاديًا.

إن النيل في ذلك الوقت كان قد قصر عن الصعود، ولم يزد ارتفاعه عن خمسة عشر ذراعًا، والناس بمجرد إحساسهم أن النيل لم يصل إلى مستواه في المقيــاس، يقومــون بالتخزين، مــما أدى إلى ارتفاع الأســعار وانعدام الأقوات، ولكن الحاكم أخذ التدابير اللازمة.

اســتخدم الحاكم القتل وسيلة من وسائل الحكم، يدمر كل من يشك في ولائــه ومــن أجل أيضًا إصلاح اعوجاج الدولة، وهذا أدى إلى أن اســم الحاكم أصبح يخيف أي شخص.

أمر الحاكم بهدم الكثير من الكنائس وبيع الكثير من الأديرة في مصر، وصــادر أملاكها مثل الضياع والمزارع، وفي الوقت نفســه احتاط على كل

مـا وجده في الكنائـس والأديرة، وجعله ملك الدولـة أو باع بعضه لقلة الأموال، وكثرة الحروب كما وهب الكثير منها إلى عسكرة.

تولى حسـين بن جوهر الوسـاطة بعـد ابن العـداس، ولكن الحاكم اسـتغنى عنه بسبب مناصرة الحسـين إلى أبو ركوة، وولي بدلًا منه صالح بن علي.

نجـد موقف المغاربة غامضًا، فلا نسـمع عن مجيئهم لنصرة الحاكم، وقت ما كان أبو ركوة في مصر، وكان باديس هو من يتولى حكم المغرب، ومـع ذلك بقي المغرب مرتبطًا برباط الود التقليدي بالحاكم في عام ألف وتسـعة ميلاديًا، ذهب باديس إلى طرابلس واسـتولى عليها، وأخرج منها (زناتـة) وهي قبيلة لها عداء مع الفاطميين، وبعدها بعام أرسـل الحاكم هدية لبادئ وابنه الذي تلقاها بالبوق والطبول.

الصعاب غالبًا تأتي من أهل الشام أنفسهم، لذلك كان لابد من احتلال الشـام، أما بالنسبة للعراق فقط ضعف البويهيين في العرق، ومن مظاهر الضعف تدخل الخليفة السني في سياسة الدولة.

لذلـك فقط عزم الخليفة السـني القادر بالله عـلى مهاجمة الخلافة الفاطمية نفسـها، فطعن فيها في محضر رسمي، وقراء على المنابر وأرسل إلى جميـع ولايـات الخلافـة، وقد قامـت الدولة العباسـية من قبل في التشكيك في نسب الفاطميين، لكن لم يكون هناك محضر رسمي من قبل.

وقد ظهر أثر هذا الطعن الرسـمي بين سكان أملاك الفاطميين، وقد هـان الحاكم في أعين النـاس لكتابه العلماء في المحضر، وانتشر أنه قامت قيامته، وكان هذا بعد ما شـاع عن الحاكم دعوة الألوهية، فازداد الناس سخرية منه، وازداد هو بطش.

لقد زاد خوف الناس من الحاكم، وشبهوه بالأسد الضاري الذي ينتظر فريسته، وخصوصًا أن مظهرة أصبح غريب، فعيناه واسعتان وصوته جهير.

فكـثرت قتلاه، كان يقتل أقرب الناس إليه، وأحرق بعضهم، فقد بنى شونة ملأها بالبوص والخشب بقصد إحراق الناس.

وكثرة الإشاعات حوله بعد بنائه للشونة، فبعض الناس قالت إنه يعبد كوكب زحل وكوكب المريخ وكان يسفك الدماء تقربًا لهما.

الحاكم أخذ على عاتقه أن يقوم بالحسبة -وهي الأمر بالمعروف عندما يكون مهملًا، والنهي عن المنكر عندما يكون علنًا- ويقوم بتنفيذ واجباتها أو يكلفها إلى قاضي القضاة ويتشـدد في توقيع العقوبات على المخالفين، وكان بالجلد بالسوط والتشهير بالطواف في المدينة، وراقب مراقبة دقيقة التجار وأصحاب الصناعات والحرف ومنع الغش وتنفيذ الحسبة.

✍ ســـارة

بعد الشــجار الأخير بيننا بسبب الملوخية والشيعة والسنة لم نلتقِ، لا أعلم هل هذا الشــجار ينهي ما بيننا؟ أم أنــه غيور قليلًا على مذهبه أم مستاء مني لاعتراضي على مذهبه.

لا أعلم ما دخل الحب وهذه المشاعر النقية في هذه الصراعات الغبية.

كنت أستشــيط غضبًــا، فأنا أنظر إلى القلوب، فهــي ما تهمني، وهي الأصــدق دائمًا، لم أهتم قــط بديانة أحد أو مذهبــه، كل ما يعنيني هو الإنســان وقلبه ومعاملته وصدقه فقط لا غير، ما دخلي أنا فيما يؤمن أو يعتقد أي إنسان،

أني أختلف عن المنصور كثيرًا، ولكن هذا الاختلاف هو ما يعجبني حقًا.

وبينما أنا شــاردة في اختلافي مع المنصــور وأحاول أن أجد له مبررات، دخلت ريحانة إلى غرفتي وكان وجهها عابس فسألتها:

- ماذا بكِ؟ لما وجهك عابس هكذا، هل تشاجرت مع يامن أو مع أحد من أفراد بيتك؟

- لا لم أتشاجر مع أحد.

- إذا ما بكِ ولم أتيتي مبكرًا من لقائك مع يامن اليوم.

-اســمعيني جيدًا، أعلم أن صديقتي بطلة، وستتجاوز المحنة بسهولة، وأنا بجوارك و...

شعرت أن قلبي سيتوقف قاطعت ريحانة وقلت:

- هل تعرض المنصور لمكروه؟ هيا أخبريني.

- يا ليته تعرض وأرحنا جميعًا، سيتزوج اليوم من امرأة لم يرها مسبقًا، ولم يتحدث معها.

كتمت صرختي الملتاعة وتجمد عقلي للحظات، وأن أستمع لما تقوله ريحانة، كنت أشعر بغصة في حلقي، كانت الدموع تغرق وجهي، كانت الطعنة أعظم من أن أستطيع أن أتحملها، شعرت أنه هتك صرح أنوثتي، كاد قلبي أن يتوقف، شعرت أن الليل هجم عليّ فجأة في وضح النهار، وأن الشيخوخة دفنتني وأن في أوج شبابي، لقد شاخ قلبي.

أيعقل انتهت القصة وانفضَّ السامر، وماتت الضحكات، ومات الحلم كأنه خيال وانطوى كل شيء كأنه وهم.

هناك فرق كبير بين كلمة الخيانة وطعم الخيانة، بين سيرة الغدر وطعم الغدر، احتضنتني وبكينا معًا وقلت لها بعد فترة ليست بقليلة تخللها الكثير من الدموع والانهيارات:

- وماذا أطلق عليه هذا برأيك؟ هل هو حب أم كره؟ أو شيء في المنتصف ليس له معنى؟

- لا يوجد شيء في المنتصف، إما يحبك أو لا يحبك، وصدقيني أيًا كان الخيار ستئول نهايته يومًا إلى شيء واحد، يحبك أو لا يحبك.

- لمـاذا يفعـل هذا؟ هل السـبب في أنـا؟ هل هذه نتيجـة مؤكدة لاختيارات سيئة من البداية؟ لماذا الغدر والخيانة؟

- أنا معك، وسـأظل بجوارك أن الخيانة جريمة مفجعة، ولكنها ليست نهاية الحياة.

وحدثت نفسي هل حقا ليسـت نهاية الحياة؟ هل سـأتعافى؟ ولكني مجروحة، أشعر أن قلبي يؤلمني وبشدة، كل خلية في جسدي تنزف وجعًا.

أن الغـدر والخيانة شيء أسـوأ بكثـير مما نعتقد، أنه أشـبه بصفعة متزلزلة وعاتية تغتال ثقتك بنفسك وبمن أحببت.

وقد جاء ما هو أسوأ من خيانة المنصور وفي نفس اليوم، وكأن الأقدار التعيسة جميعها اتفقت على أن تدمر حياتي في يوم واحد، لقد ولت الأيام الجميلة لتفسح للأيام التعيسة مكانها.

سـمعت صراخ أمي خـارج الغرفة، فانقبض قلبـي وركضت للخارج وجدتهـا تضم أبي وتصرخ، كنت أعلم أنه عـاد من العمل متعب، ولكنه إرهاق العمل لا أكثر.

لم أصدق عيني، ولم أصدق صراخ أمي، ولكن عندما رأيته شـعرت أن قدماي ثقيلتان لا تستطيعان التقدم ولا خطوة واحدة.

أبي، أبي يا أبي أنك لم ترحل أليس كذلك؟ لم تتركني؟ لن أستطيع أقسم

لــك؟ الحياة صعبة ومتعبة وأنا أتجاوز كل شيء لأنك معي ماذا ســأفعل دونك؟ أرجوك استيقظ وأخبرني أنك لن تتركني.

لقــد رحل المنصــور وتركني، وكنت ســأحكي لك لتهون عليّ مأســاتي وتخبرني أني أجمل بنات هذا العالم، وأنه هو الذي سيخسر ولست أنا.

ليس الآن يا أبي أرجوك، لا تفعل، احتاجُك.

رحلت أنت والمنصور في يوم واحد يا أبي، لقد قضيت على كل الزهور والورود والبهجة التي كانت في داخل روحي.

واقتربت وقبلته كان بارد كالثلج شعرت ببرودة جسده تسير في عروقي ثم قلبي ثم عقلي.

تبــدل حالي في أقل من دقيقة، أصبحت كالجبال باردة وثابتة، لم يكن إنكار كان أشبه بتقبل مؤقت للواقع.

غُسل أبي وكفناه ودفنت أبي ودفنت جزء كبير من روحي وقلبي معه.

✍ مـوســى

فوجئــت بريحانة أمامي من غير موعد مســبق، كان موعدنا كل يوم اثنين أما اليوم فهو الأربعاء، جاءت من تجعل الحليم يبات حائرًا، توجهت إلي وقالت وهي تنظر إلي:

- أريد أن أتحدث معك.

- ماذا بكِ؟ ماذا حدث؟

- طلبت من مصطفى الطلاق.

شعرت أن قلبي كاد أن يتوقف من الفرحة، حاولت أن أتماسك لكي لا تعتقد أني لا أشعر بها، فالأمر أكيد محزن بالنسبة لها.

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- أنــت تعلــم أني أحبك، وأنا حُب مصطفى، انتهــى من زمن، ولكني عندما أخبرته شرع بالبــكاء والرجاء من أجل الأولاد والعشرة والذكريات والأيام وهكذا.

- لذلك لم أستطع أن أرفض طلبه، ووافقت على إعطائه فرصة أخرى، وقفــت أمامها أرتجف من هول كلامها لي ووجهي كان محتقن، كيف أجعلها تشــعر بقيمتها في حيــاتي؟ لماذا أفعل بنفسي هكــذا؟ لماذا أقف وأستمع إليها؟

- ما فعلته هو الصواب بعينه، أعطيه فرصة أخرى.

-هذا هو رأيك؟

-وما فائدة رأيي، أنكِ أتيتِ لي الآن لكي تخبريني بقرارك، أليس كذلك؟

رأيت الكثير من الدموع في عينيها وقالت لي وهي تهم بالمغادرة:

- الحق معك، إلى لقاء قريب.

لِمَا لا يعذب في هذه الدنيا سواي؟ تخبرني ببساطة أنها ستعطي فرصة أخرى لزوجها، وعلي تقبل الأمر ببساطة والدعاء لهم أيضًا أن يوفقهم الله.

أنها تستهين بما أشعر، أنه شعور مدمر، أني أموت في كل لحظة، وأنا أتخيله يلمس جسدها، الخلاص يا ربي من هذا العشق.

المطلوب مني في هذه اللحظة أني لا أغضب ولا أتعاطف، فقط أقف عند المنتصف، وأتعود على الحياد إلى أن تعود إلى حياتي مرة أخرى، ولا أحب شيئًا ولا أكره شيئًا وأعلم قلبي التجاهل والصمت.

✍ الحاكم

أنه يوم زفافي أو بمعنى أصدق يوم وفاتي، لقد تركت سارة وابتعدت عنها، بل وسأتزوج بأخرى، تركتها وأنا عائد لها لا محالة، لأني أعلم أني لن أستطيع أن أنسى سارة مهم حدث، الموت هو العلاج الوحيد للتوقف عن حب هذه الفتاة.

وبدأ العرس، وكان عرس كبير يليق بالحاكم بأمر الله، وأيضًا يليق بسارة حبيبة الحاكم، ولكن أين سارة الآن؟ لقد قتلتها بيد باردة وغادرت لمجرد غروري وكبريائي، سحقًا عليك أيها الحاكم، ماذا فعلت بنفسك؟

أثناء مراسم الزواج وكتب الكتاب كاد قلبي أن يتمزق ألمًا، وأنا أتتبع كل خطوات العرس وأتخيل سارة هي التي سأتزوجها وليست هذه المرأة التي حتى الآن لا أعرف ما اسمها.

كنت أجهد نفسي في اختيار شكل عرسنا وخطواته وهي معي، بل كنت أحلم باليوم التي ستكون فيه بين ذراعي.

أنها المرأة الوحيدة في حياتي التي رغبت بها وتعودت عليها بل واشتهيتها، كنت مصدوم من ردت فعلها، لذلك تهورت وأخذت قرار الزواج لكي أعاقبها على أثم لم تقترفه، ولم أفكر في عواقب هذا القرار.

وانتهى العرس ودخلت الغرفة أنا والعروس التي لم أعرف اسمها حتى الآن، كنت أشعر أن أنفاسي ثقيلة لدرجه لا أتخيلها، كنت أسمع دقات

قلبي قوية ترج صدري بقوة قلت لها:

- ما اسمك؟

- غدير.

- اقتربت منها واقتربت مني ونزعت عنها ثيابها في استهانة وقلة احترام مني وكنت أقصد، لم أكن أريد أن أراها، ولكن المطلوب مني الآن أن أضاجع هذه الفتاة، لكي لا تتحدث عني وتقول لست رجلًا.

واقتربت منها، حيث كان جسدها دافئ وشعرت أنها تلامسني بصدرها وظننت أنها تستطيع أن تداويني من آلامي.

فاقتحمتها فصرخت صراخًا ملتاعًا، صراخها زاداني رغبة في إيلامها، فأتيت عليها بكل قوتي حتى انتهت شهوتي، وانتهى أيضًا انتقامي من نفسي ومن الظروف.

مر أسبوع على زواجي، ولم أقترب من زوجتي إلا يوم الزفاف.

اشتقت إلى سارة أريد أن أراها، وأرى تلك النظرة التي بت أفتقدها من زمن بعيد، واستدعيت يامن لكي أعرف ما علي فعله لكي أرى سارة، جاء وقال لي ما أفجعني:

- لا أظن أنك ستستطيع رؤيتها يا مولاي.

- أعلم أنها غاضبة مني، ولكني سأستطيع أن أراضيها.

- اتركها يا مولاي، فهي تعاني كثيرًا الآن. وأردف:

-لقد مات أبو بكر يوم عرسك، وهي تألمت كثيرًا لزواجك ولفراق والدها.

الفصل الثامن

«لا تترك البطل بداخلك يهلك في غمرة إحباطك الموحش يمكنك أن تربح العالم الذي ترغب فيه»

✍ أوضــاع البــلاد (1010-1014)

ظهر رجل فارسي يدعي (الأخرم) وكان يحب الحاكم جدًا، هو وجماعته وبالغــوا في حكمه، حتى وصف الأخرم الحاكم بأنه هو المعبود، وأســقط اسم الله واسم محمد وأن التنزيل والتأويل والتشريع خرافات وقشورًا.

أمر الحاكم ابن جوهر بلزوم داره، فأحس بالخوف من الحاكم، فهرب بأولاده وصهره -هو عبــد العزيز بن محمد بن النعمان أو قاضي القضاة وقتها- إلى جبل المقطم، وظل به ثلاثة أيام ثم هرب إلى الإسكندرية، حيث القبائــل المؤيدة لأبو ركــوة، وكان الحاكم قد صادر كل أموال الهاربين، لم يكن الحاكم يفكر في قتل ابن جوهر، خاصة أن والده هو مؤسس الدولة الفاطمية، لذلك لم يترك الأمر يمر مرور الكرام.

في عام ألف وثلاثة عشر ميلاديًا، وصلت ســجلات من الحاكم بإضافة برقة وأعمالها إلى باديس وتبادل معه خطابًا يبين له فيه أنه عُين في ولاية عهــده ابن عمه عبــد الرحيم، وبعدها بعام أخــرج باديس بدورة هدية للحاكم، كما وجهت أخت باديس هدية إلى أخت الحاكم.

بقيــت صقلية خاضعة للحاكم بعد العزيز، وذلك بســبب أســاليب الحاكم الماهرة، وذكر ذلك في ســجل ابن أبي عوام سنة ألف وأربعة عشر ميلاديًا، إلى جانب وجود عمله مختومة باسم الحاكم في هذا العام.

خرجت الحجاز عن السيطرة الفاطمية في عهد الحاكم، عندما أعلن أمير مكة أبو الفتوح بن جعفر الحسني الخطبة لنفسه، وتلقب بأمير المؤمنين الراشد، ونزع ما كان في الكعبة من ذهب وفضة وضرب نقودًا باسمه، كما استولى على المدينة من الحسنين، كما أنشأ كتابًا قرئ على الناس بألا يقبل أحد الأرض للحاكم، وخطب في الناس خطبة وصف فيها الحاكم بأنه فرعون علا في الأرض، ولكن الحاكم أسرع إلى العمل فاستمال العرب لاسيما وأن مال أبو الفتوح كان قد نفذ فتفرق العرب عنه.

بدأت خلافات ومشاحنات بين ست المُلك والحاكم، أدت إلى صياح وسب، أُحصيت عدد الجوامع بمصر فوجد عددها ستة وثلاثين ألف مسجدًا، وكان الحاكم يحمل إليها القناديل والمصاحف والبخور والحصر والإضاءة الخاصة بشهر رمضان في مواكب شعبية فيهلل الناس ويكبرون.

أحس الحاكم أن الناس تخافه وخاصة بعد أن قويت الإشاعات، فخرج سائر الكتاب يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر، فوقفوا يتضرعون ويسألون العفو عنهم، ومجموعة أخرى من الناس ذهبوا إلى قبر أبيه العزيز وضجوا بالبكاء وكشفوا رءوسهم، فأسرع الحاكم إلى إصدار أمانات عديدة لتطمئنهم، حتى بلغ ما كتبه فوق مئة سجل التي أعطيت لأهل الأسواق، وقرئت بالقصر ويبدو من صياغتها رغبته الشديدة في إرضائهم وطمأنتهم على دمائهم ومالهم، وأنه لا يقصد بهم شرًا، وإنما شدته تكون فقط لإصلاح المعوج.

بقيت مصر ثلاثة أشــهر دون قاضي، وقــد أتاحت هذه المدة للحاكم أن يستشير الناس ورجال الدولة وكل من يعرفهم من يولي قاضي القضاة، وأخيرًا تم اختيار أبي العوام المصري، وهو أول مصري يتقلد بهذا المنصب، وليس على المذهب الفاطمي، فاعترض الفاطميين وقالوا له «أنه ليس على مذهبك ولا على مذهب من سلف من أبائك».

فقــال لهم: هــو ثقة مأمون مصري عارف بأحــوال أهل البلد، وما في المصريــين من يصلــح لهذا الأمر غــيره «وظل في الحكــم إلى نهاية حكم الحاكم».

وفي أول عهــد أبي عــوام تعرض إلى حادثة، حيث دخــل عليه الأخرم وخمسين رجلًا عليه الجامع راكبين، وأخذوا أموال الناس وثيابهم وسلموا لابن أبي عوام رقعة ليقرأها وكان بدايتها أن (بسم الحاكم الرحمن الرحيم) فرفع القاضي صوته مستنكرًا، وثارت الناس وقتلوا أصحابه وهرب الأخرم.

✍ ســـارة

مضى أســبوع على وفاة أبي ورحيل المنصور، وأنــا لم أبكِ قط، صامتة طوال الوقت، لا أريد التحدث أو البوح عما في قلبي.

جــدي كان مريض هذا اليوم، لذلك أمي قررت أن تذهب إلى زيارته، وستظل عنده طوال اليوم، وطلبت مني أن أذهب معها، ولكني أخبرتها أن تتركني بمفردي، لا أود أن أرى أحد أو أتعامل مع أحد، وذهبت وتركتني.

بدأت الشــمس في المغيب ولكن أمطرت الســماء في هــذا اليوم، كم أحب المطر يشــعرني بالخير، يقيني يخبرني أن الدنيا تريد أن تعقد معي مصالحة، أشعر أنها بداية هدنة مع الحياة.

كان هنــاك طرق متواصل على الباب أفزعني، ركضت لكي أفتح الباب وفتحتــه وتجمدت في مــكاني -كان المنصور- كان مطفــئ الوجه وعيونه غائــرة ودموعــه محتقنة في عينيــه، منكسرًا، لم يكن ذلــك الحاكم، كان ضعيــف وهش وكانت يده ترتجف، مرت أكثر من خمس دقائق دون أن نتحدث، ننظر إلى بعضنا فقط، فقالت العيون كل ما حوته الصدور أخبرته عن عتاب قاسٍ وشوق عميق ولهفة هائلة، تعانقنا والدموع تغرق عيوننا.

ودخل الدار وأغلق الباب خلفه وضمني بقوة وقال في أذني:

- سامحيني على كل شيء، لم أعلم إلا الآن أن والدك توفى.

وبمجرد ما نطق بالكلام لم أشــعر بنفسي ألا وأنا أنهار بين ذراعيه كأن

أبي مات الآن، بكيت كثيرًا، وتألمت كثيرًا وأنا بين ذراعيه كان يضمني بقوة ويبكي معي ويقبل رقبتي، إلى أن جفت الدموع.

أغمضت عيني وهدأت ولكن المنصور لم يتوقف عن تقبيلي، لم أمنعه بل تركته يفعل ما يشاء على العكس ما ظننت، هدأت مع قبلاته الحنونة البطيئة على جسدي كله، لم يمهلني فرصة للتفكير، خلع عني ثيابي وخلع ثيابه وضمني بقوة ذبت بين ذراعيه القويتين، كنت أستمتع بأول تجربة لممارسة الحب الحقيقي.

أطلقت تنهيدة قوية عندما تلاقت حرارة أجسادنا، شعرت برجولته بقوة، بدأت أشعر بالخوف والخجل، كان ينظر لي ويطمئنني ويقبلني قبلة طويلة لأغرق أكثر في حبه، كان يعلم ماذا عليه فعله، وكيف يجعلني أشعر بأمان واستمتاع.

وجعلني أنام على الأرض، ونظرت له عندما كان قريب جدًا مني بعينين مستسلمتين، وبدأت أخاف وأرتعش ولكنه كان يطمني بقبلاته الطويلة، وتصاعد إيقاع كل شيء حتى وصلنا إلى الجنون والصراخ من الاستمتاع إلى أن انتهينا، فابتسم وابتسمت وضمني بقوة وقبل رأسي وترك الهدوء يتسلل إلى جسدنا معًا.

عادت أيامي مع المنصور، أصبحنا نلتقي كل يوم عند الأرجوحة، وتعاهدنا ألا تلتقي أجسادنا مرة أخرى ألا إذا تزوجنا أمام الناس جميعًا،

عاد أيضًا أكثر سلام مع نفسه، ولكن كان يعذبه عدم تلاقي أجسادنا، كان يتمنى ويحلم أن يعود هذا اليوم مرة أخرى، ولكني كنت أرفض وأصر على رفضي، كان يغضب ثم يقبلني على رأسي ويقول سأتحمل.

أما بالنسبة لأمر زوجته، فكنت لا أريد أن أسمع شيء عنها ولا عن حياته معها، وخصوصًا أني علمت أنها حامل في طفلها الثاني.

لم أحاول أن أتحدث عنها أو أجعله يطلقها أو يتركها، فهي لا ذنب لها في نوبات جنون المنصور.

علم المنصور أن هناك عرسان تدق بابي، فغضب كثيرًا، وحظرني ألا أحاول أن أقابل هؤلاء العرسان، ولكني أخبرته أني لا أستطيع أن أفعل، ماذا سأخبر أمي في رفضي لمقابلة عريس يطرق بابي؟ فكان يعض على شفتيه إلى أن تسيل الدماء.

وأخبرني أن أحول البلاد لن تسمح له الآن عن إعلان أنه ينوي الزواج من امرأة مصرية سنية، وأخبرني أنه علي فقط الانتظار.

ولكنه أصبح أكثر جراءة وجنون، أراد اليوم مني أن أركب معه عربته ونسير وسط العامة، في بادئ الأمر اعترضت على حديثة، ولكنه أخبرني أن وجهي ليس مكشوفًا، فأنا أرتدي البرقع، ولن يتعرف أحد عليّ، فقبلت حتى لا يغضب، وفي أثناء سيرنا بالعربة مررنا من أمام حمام للسيدات وسمعنا صوت ضحكاتهم المرتفع فغضب المنصور كثيرًا.

واســتدعى يامن وأمره أن يســد هذا الباب بالحجــارة، ولا يخرجوا إلى أن يموتــوا كنــت متأكدة أنه يريد أن يرهبهم لــن يتركهم لكي يموتوا، وارتبكت الحياة في هذا الشارع واهتزَّت النفوس وزلزلت في الصدور.

ريحانــة

أنتم أسكتم صوت قلبي وخنقتم صراخ مشاعري، قتلتم صوت الحب في فمي، تظنون أننا نقود الحب ومسار العلاقة ونحن الذين نقاد، تظنون أنفسكم سادة على الحب، وأنتم له عبيد، أن الحب ليس لك يد فيه ليس لــك ناقة ولا جمل لكي تضعوا شروط وحدود له، حاولت مرارًا وتكرارًا أن أعطي لمصطفى فرصة أخرى، ولكن حب موسى يطغى على قلبي.

كان ودود ورقيــق وطيــب معي ومــع الأطفال، ولكــن عندما حاول الاقتراب مني لم أستطع، بكيت وأنهرت وتهدمت كل قواي، حقا لم أستطع عندما وجدني هكذا مصطفى قال لي:

- حسنًا، كما تشائين، أنا آسف، اختاري الوقت المناسب لنتمم مراسم الطلاق.

يـامــن

أنــا لا أعلم ما هذا الشــاب الــذي يدعي بالــدرزي، لا أعلم هل هو وصــولي أو أنه يحب الحاكم فعلًا، ولكنــه يبالغ في حبه بطريقة تجعلني أنفــر منه، ولكن الحاكم يحبــه أيضًا، ويحب أن يســتمع إليه، لن أنسى موضوع الروح الذي تحدث عنه، هل يعقل ما قاله؟ ما هذا الهراء؟

أيعقــل أن روح آدم جاءت علي، وروح عــلي انتقلت إلى الحاكم، أني أتوجــس خيفة منه، وأكثر ما يقلقني إعجاب الحاكم به، إن الناس تصفه على أنه غلام الحاكم.

أريــد أن أرى بتول فهي الوحيدة القــادرة على تبديد كل هذا الحزن والوجع الذي في قلبي.

لا أستطيع أن تستمر الحياة بيننا هكذا، هي في دار وأنا في دار أخرى، أريد أن أتزوجها وتكون امرأتي، أنا لكي تؤنس وحشتي وتلهمني وتساعدني على تقلبات الحاكم.

الفصل التاسع

«لا علاقة للنجاح بما تكسبه في الحياة أو تنجزه لنفسك، فالنجاح هو ما تفعله للأخرين»

✍ أوضــاع البــلاد (1014-1019)

ارتفع شأن الدرزي في البلاد وكان القادة والعلماء يقفون على بابه ولا ينقضي لهم شغل إلا على يده، وبدأ يدعو الناس إلى أن الحاكم الإله الذي صنع العوالم، وصنف كتابًا شــبيهه بالقرآن ســماه الدستور، وكان للدرزي اتباع بلغ عددهم ســتة عشر ألــف، وكانوا يقومون بأمــور مبتذلة مثل تلطيخ القبلة والبول على القرآن، وسافر إلى الشام هكذا كانت نهايتها.

الحاكــم هدم كنيســة القيامة التــي يحج إليها الروم، وذلك بســبب أن حاكم الروم هدم مســجد القســطنطينية، وأيضًا بسبب ما فعل ملك الحبشة في مسلمي بلاده، فجعلهم يدفعون الجزية، ووضع على أعناقهم الحديد وعليها ختم الملك.

بعد وفاة زرعة قلد الحاكم الوســاطة إلى الحســين بــن الوزان ولقبة بأمــين الأمناء، ولكنه عزله وقتله لأنه كان يعارض تصرفاته المالية، ثم عين الأخوين الحسين وعبد الرحمن أولاد القاضي، ولكنه قتلهم بعدها بشهرين ثم الفضل وخمسة أيام وقتله، ثم ولي ابن جعفر ولقبه بالأمين المظفر.

قــام المغاربة بفتنة كبرى ضد الحاكم، وتغلــب عليه جعفر ولي عهد الوالي لصقلية وهو يوســف، ولكن المغاربة ما لبثوا أن أجبروا يوسف على نفي ابنه جعفر إلى مصر عام ألف وتســعة عشر ميلاديًا، فأرسله يوسف إلى الحاكــم، ومعه أموال كثيرة، وولي بدلًا منــه الأكحل الذي بقي ولاءه

للفاطميين، على الرغم من استمرار ثورات المغاربة ضده، مما مهد إلى ضعف سيطرة الفاطميين على صقلية.

منع النساء من الخروج من البيت نهائيًا، كما منعهن من النظر من الطاقات والأسطح، وإذا أرادوا شراء شيء، الباع هم من يذهبون إلى البيت، ويكون معهم شيء شبه المغرفة بيد طويلة يمده إلى المرأة، ويكون هو من وراء الباب، وفيها ما تشتريه فإذا رضيت وضعت الثمن في المغرفة، وأخذت ما فيه لئلا يراها.

المرأة لا تخرج إلا في التغسيل أو الولادة أو السفر فقط.

تفاقمت الخلافات بين ست المُلك والحاكم إلى أن قال لها كلامًا قبيحًا، وأوقع بها الفواحش بأنها تمكن الرجال منها.

سـارة

أحـوال البلاد جعلت من المنصور شـخصًا آخر، أصبـح غاضبًا طوال الوقت، لا يكف عن الصراخ والتذمر، وإلقاء اللوم على الجميع لأنهم غير ملتزمين، ولأنه خائف عليهم من عذاب الله.

إلى أن علمت من بتول أنه عندما أغلق الباب على النساء في الحمام لم يكن يريد أن يرهبهم فقط كما اعتقدت، لقد تركهم إلى أن ماتوا جميعًا، كنت أسـمع الكثير عن مصائب المنصور، ولكني لا أصدق معظمه، ولكن هذا الأمر حدث أمام عينـي، والأدهى أنه أصدر قرار اليوم بعدم خروج النساء من دارهم بتاتًا، لم أشعر بنفسي إلا وأنا أرتدي ثوبي وأتوجه للقصر غير عابئة لا به ولا بقرارته.

كان الجميـع ينظر إلي ولكن لم يعترضني أحد في طريقي، حتى عندما ذهبت إلى القصر كان من حسـن حظـي أن يامن يعطي أوامره للحراس عـلى البوابة، وشـاهدني الحراس وكادوا أن يقبضوا عـليّ لولا يامن الذي طلب منهم أن يتركوني، وقلت ليامن وكلي غضب:

- أريد أن أقابل الحاكم بأمر الله الآن.

- سارة ما الذي أخرجك من دارك؟ ولماذا لا ترتدي البرقع؟

- معذرةً يا يامن أريد المنصور.

- سيغضب كثيرًا.

- فليكن، إذا سمحت أريد أن أراه.

- تفضلي.

ودخلت عليه غرفته فتفاجأ المنصور عندما رآني وقال لي وهو غاضبًا:

- كيف خرجتي من دارك ألم أمنع خروج المرأة من دارها.

-ماذا دهاك المرة السابقة تؤكد لي أنك ترهب النساء فقط في موقعة الحمام، ثم تجعلهم يموتون جميعًا، والعاهرات تضعهم في صناديق وتغرقهم في النيل لما، أنت إله وأنا لا أعرف.

-كيف خرجتي من دارك؟

- أصبحت تقطع رقاب مخالفيك في الرأي، وتعدم أخ لك في الإسلام، ورفيقًا لك في الكفاح لمجرد أنه خالفك في سياستك.

- كيف خرجتي من دارك؟

- هل هذا فقط هو ما يشغل بالك! كيف خرجت من داري؟ اعتبرني خرجت لكي نتقابل عند المقطم أم أنك تريد أن تلغي لقائنا.

- انتهيت.

-نعم.

-أنكِ بتصرفك الأحمق هذا تكسرين أوامري أمام الناس.

- الناس! هل هذه فعلًا مشكلتك الناس؟

- أنــت تعلمي أنهم آخر همي، لذلــك أنتِ وهما غاضبون مما أفعل من أجل الدين؟

- الدين، وهل الدين هو الذي جعلك تدافع عما قاله الآخر أم أنك إله؟! إله يا حاكم هل جننت! أنا حقًا لا أصدق!

- تحدثي بأدب معي أولًا، ثم أنا لم أدافع عنه.

- أنت كاذب لقد كفن بكفن القصر ودفنه كان بطريقة رسمية، ولكي تفعل ذلك بدون أن يعلم الناس ادعيت أنه جند من جنودك.

-هذه ليست الحقيقة، من أخبرك بتول بالتأكيد.

- لم يخــبرني أحدًا، كل العالم يعرف لقد نبشــوا القــبر وعرفوا جميعًا، أفق يا منصور ولا تتبع هواك. أتعلم شــيئًا آخــر يا منصور: أنك تصطنع الحجج والمبررات والحيثيات لكل شيء، تريد أن تفعله قبل أن تقتل هذه الســيدة أو ذلك الرجل، تضع نظريــة للقتل وقبل أن تضر هذا أو تخرب ذاك تســوق المعاذير والذرائع، حتى الأشــياء التي ليست معقولة تغلفها وتكسوها بثوب المعقول.

- تحدثي باحترام.

- إنك تجعل من نفسك المحامي والقاضي والمجني عليه في نفس اللحظة.

-إن رؤيتــك نصف عمياء، فكل واحد يرى الأمور من وجهة نظره هو ولا يضع أسباب أو مبررات للأخر.

الأمان في البلاد والاســتقرار وتطبيق الدين والشريعة لا يشترى بالمال بــل يؤخذ غالبًا بالشــجاعة والقوة، هكذا تعلمت مــن التاريخ، إذا كان مظهــري يبدو للأعــداء حاكم طيب أو رحيم ســأغري الأعداء كما تغري الحملان الشاردة الذئاب، وأنا أعدائي متربصين لي.

- أنت تهزم نفســك وتحفر قبرك بيدك، وتوفــر على أعدائك المعركة، لمــاذا لا ترى الخير والأمــل، لماذا لا تكون قدوة إيجابية تجمع الشــمل؟ وتداوي الجرح الذي سببته في نفوس أبناء بلدك، وتبدأ في تقديم الحلول، لماذا لا تخرج من هذه الحفرة الســاذجة التي حفرها لك أعداءك؟ ولماذا لا تقرأ التاريخ الصحيح وليس الذي قمت بقراءته وتعي الدرس؟

-وهل أنت التي ستعلميننني التاريخ وتعطيني دروسًا أيضًا؟

-لا فائدة حقًا، ســأخرج من القصر ومن حياتك يا منصور، أن حبيبي ليس ظالم، وأنت أصبحت ظالمًا.

وكان يتطلع إلي في غضب وخوف وأردفت قبل أن أخرج:

-يا منصور سأخرج من داري كما أشاء، وسأستعد لكي تقطع رقبتي، وخرجت وتركته يستشيط غضبًا.

بعد آخر لقاء بيننا في القصر وبعد تسارع الأحداث في البلاد ومصائب المنصور التي لا تنتهي.

أصبحت أخافه، لم أعد أشــعر معه بالأمان مطلقًا، ولكني أحبه وأعلم أن كل هذه القسوة التي يظهرها خلفها الكثير من الحنان والحب.

ولكــن كفى أعذار ومــبررات للمنصور، لم أعــد أراه، ولا أود أن أراه، ولكني لم أكف عن الذهاب إلى الأرجوحة كل يوم.

وبينما أن جالســة عــلى الأرجوحة لمحته يأتي مــن بعيد كان منكس الرأس، يبــدو عليه الحزن، لم يكن يعلم بوجودي هنا، وعندما شــاهدني ابتســم واقــترب والتهمتني عينيه الملهوفتــين، كان يتمني من أعماقه أن يضمنــي ويعانقني، ولكن ما صار بيننا آخر مرة جعل هناك حائط صلب وقوي بيننا، نظرت له معاتبة ففهم، نظر لي متأسفًا ففهمت.

قال لي:

-انتظريني، سأعود المنصور الذي أحببته، ولكن أعطيني الوقت الكافي فقط، لكي أستطيع استعادة نفسي مرة أخرى.

-الطريق معك صعب يا منصور لا أستطيع أن أكمله مرهق ومتعب.

- إن صعوبة الطريق تدل على عظمة منتهاه وبدون معاناة لن يتميز أحد.

-أين ستذهب؟

-سأختلي بنفسي قليلًا.

-صحبتك الســلامة يا منصور، اعتني بنفســك، لأنــك طلبت مني أن أنتظرك.

واقــترب مني لكي يضمني، ولكني أوقفته بيــدي وهززت رأسي أني لا أريد فانصرف.

✍ يــامــن

أصبحت رؤيــة الحقيقة أصعب من رؤية إبــرة في الظلام، وصلنا إلى نقطة انعدام رؤية الحقيقة والحق.

والله يا منصور لو جندت لك الفارابي وأرسطو لكي يقنعوك لم يفلحوا، أنك تنفذ ما برأسك وكفى ولا تهتم بأمر أحدًا.

أرجو أن تعود راشدًا بعد الخلوة التي تحدثت عنها.

✍ الحاكـم

الريـح تعـوي في الخارج كأنها قطيـع من الذئـاب، أصبحت وحيدًا مثـل خيال المآتة كما يقول المصريـين في أرض ليس بها حتى الغربان لكي تهاجمني، أصبحت مثل الذي وقف على حافة الجبل لم يسـقط ولم ينجُ، أنظر إلى يدي من وقت إلى آخر كأني أنظر إلى وحش جريح لا يتكلم.

لا أدرى لمـا تتنبأني هذه النوبات، أوقات أكون مثل النور أضيء للناس الطريق، وأوقات أخرى أكون كالنار أحرق كل من يقترب مني، أتكبر كأني إلـه وأكون حليم ورحيـم كأني نبي، وأوقات أكون سـفاح وأوقات أكون شاعر هيمان في حب سارة.

أني أصبحت مثل لغز طلسم حتى أنا لا أجد تفسير لما أفعل.

وتمر الأيام والحياة تقسو أنا بمفردي، لقد شككوا في نسبي وقالوا عني ساحر وأعبد الكواكب، وأنا أقسم لك يا ربي لم ولن أعبد ألا سواك.

لماذا الحياة قاسـية هكذا، أم أن هـذا انتقام الله لي على ما فعلت في عباده، لم أقصد كنت أريد أن أقيم العدل على الأرض.

لقد أصبحت حياتي كالجحيم، كدت أن أنهار في التفكير في كيف أقيم العدل تعذبت كثيرًا يا إلهي.

كنت أتعذب وأنا أقتل عبادك، ولكنهم كانوا ينشرون الفساد في الأرض، لذلك كنت أريد أن أحاسبهم على أخطائهم.

ماذا تقول لنفسك يا منصور، أظننت أنك إله حقاً كما يدعي هؤلاء الكفار.

يجب أن أعود مرة أخرى لكي أصلح أخطائي، عسى أن يسـامحني ربي على ما فعلت.

سأتعافى قريبًا وسأكون مثل النور الذي ينير القلوب بالحب.

المحنـة لا تنسى ولكن الحياة تمضي، لذلك يجب علينا أن نتعايش مع الواقع المفروض علينا.

الفصل العاشر

«اللحظة التي تشعر فيها بأنك على شفا الاستسلام هي عينها اللحظة التي يجب أن تدفع فيها نفسك للمضي قدما»

✍ أوضــاع البــلاد (1019-1021)

استعان الحاكم بحمزة من أجل وضع مذهب جديد يصلح به العقائد الموجودة في المذهب الأساسي، ولم يدَّعِ أنه من وضعه، ولكن ترك كل شيء علي يد حمزة.

استعان الحاكم بثلاثة رجال من أجل إعادة الأمور إلى وضعها الطبيعي، ختيكن والكرماني في الرد على (الدرزي - الأخرم)

وأيضًــا أعاد الحاكم بناء الكنائس التــي هدمها وأعاد الأديرة إلى أهل الذمــة، وخفف الأحــكام التي اتَّخذها بشــأنهم، وجعلهم لا يلتزمون إلا بالغيــار فقــط، ولم يكتفِ بذلــك، بل أعلن أن من دخل إلى الإســلام من أهل الذمة ويريد أن يرتد عن الدين الإســلامي فليفعل، فارتد عن الدين الإسلامي في يوم واحد فيما يقارب سبعة آلاف يهودي، كما أرتد من القبط الكثير ومنهم من كان يتظاهر بإســلامه لمدة ســتة ســنوات، مع أن هذا القرار يخالف الشرع، ولكنه لم يهمه أحد.

وأعاد الحاكم بناء كنيسة القيامة، واستمر متمسكًا بالهدنة مع الروم، لأن حينما أرســل ملك الروم بعثة إلى الحاكم، أحســن الحاكم استقبالهم في قصره.

بعــد مقتل جعفر ولي الحاكم ابن عمه الأمير هاشــم، ثم اعتمد على رؤساء الدواوين

استقبالهم في قصره، ولكن ربما باسيل فكر في نقض الهدنة لأن جماعة كاثوليكية تعرف بالإنجاز، كانوا يحاربون باسيل الثاني، الذي أرسل نحوهم أسطوله.

فكاتب جرجس ملكهم الحاكم في أن يتفق معه على باسيل. لذلك استعد باسيل لمحاربة الحاكم.

الحاكم عطل قوافل الحج عدة سنوات، حرصًا على سلامة الحجاج، كما انقطع عن إرسال الكسوة، التي جرت العادة بتجهيزها.

من الطريف أن نذكر أنه لم يحج أحد من الخلفاء الفاطميين، كما لم يحج أحد من الخلفاء العباسيين منذ هارون الرشيد.

خرج الحاكم ذات يوم إلى جبل المقطم ورفض أن يأخذ أحد معه، لم يأخذ إلا حماره، ولم يعد.

سـارة

بعد خلوة المنصور، التي طالت كثيرًا، عاد أقوى أشـجع من السـابق، لقد عـاد منصوري الذي أحببته، علمت مـن ريحانة أنه عاد كما تمنيت مـن إصلاحه للكثير من أمور البلاد التي كان قد أفسـدها بيده أو بأيدي الآخرين.

وقد أرسل لي مع ريحانة خطاب عن طريق يامن، وكان محتوها:

«انتظريني اليوم عند غروب الشمس، ولكن في دارك يا أميرتي، وأخبري أمك، أن هناك عريس ميسور الحال ويحبني ويريد أن يتزوجني»

كدت أن أمسك نجوم السماء من السعادة وأخبرت أمي ونظفت الدار وانتظرت ولكنه لم يأتِ.

✍ يـامــن

كان الحاكم على غير طبعه هذا اليوم، بشوش وسعيد وهادئ، وعندما سألته عن السبب قال لي:

- أنك غريب يا يامن ألا تريد أن تشاهدني سعيد.

- العفــو يا مــولاي، أدعو اللــه دائمًا أن يكتب لك الســعادة الدائمة، معذرة يا مولاي هناك اجتماع مع أصحاب الدواوين.

- لا أريد لقاءات أو اجتماعات اليوم، الدنيا أصغر مما تتخيل يا يامن، أريد أن أتمتع بمنظر السماء والطيور والزهور.

تركته وانصرفت.

وعند غروب الشمس كان يستعد للخروج، فبدأت أجهز نفسي للخروج معه، ولكنه أخبرني أنه يريد أن يخرج بمفرده، وأصرَّ على ذلك فتركته.

كان قلبــي يحدثني أنه لن يعود لذلك كنــت أتمزق ألمًا ووجعًا عليه، وعلى ذكرياتنا معًا وأوقات الفرح وأوقات الحزن.

مضى ثلاثة أيام على اختفاء المنصور، والقصر كله في ارتباك.

أن ســت المُلك هذه المــرأة دائمًا لا تعجز أو تتضعــف أبدًا، لا وقت للعواطف في أوقات الأزمات.

يخطــئ من يظن أو يتوهــم أن حكم المرأة ناعم مثل حضنها، فالمرأة عنيدة ومثابــرة في خطئها قبل صوابها، وطاقتها عــلى العناد والإصرار في

الحالتين أكبر من طاقة الرجل بكثير، وهي لا تتنازل عما في رأسها بسهولة.

عندما بدأت تشعر أن الحاكم لن يعود، بدأت تستحلف الجند لمبايعة أبي الحســن وتوزع الأموال، وأخيرًا أحــضرت الناس والجند ورجال الدولة بعد سبعة أيام من اختفاء الحاكم لمبايعة أبي الحسن أو الملقب بالظاهر ابن الحاكم بأمر الله.

وأقاموا العزاء على الحاكم ثلاثة أيام واستمر البكاء عليه طوال الليل.

✍ مـوسـي

ريحانــة امرأة جميلة، عندمــا تنظر إليها لا تعطيها ســنها الحقيقي، لا يظهــر عليها أنها متزوجة لأن عينيهــا تملأها براءة الفتيات البكر، ومن المؤكــد أيضًا أنك لن تتخيــل أن هذه المرأة لديها طفلين، وأن هذا الصدر الناهد الناضج المغري قد قام بإرضاع طفلين، كانت فاتنة بحق، جســدها رشيق رشاقة الصبايا الصغيرات، يقولون إن المرأة في الثلاثين مثيرة، فريحانة ليست مثيرة، أنها الأثارة بعينها تمشي على الأرض.

وتمر الأيام والليالي قاسية باردة كئيبة، يشعر جميع من حولي بما أعاني ويظهر الذبول والحزن على وجهي، ولكن هناك دائمًا شــخص واحد قادر على أن ينتشــلك من أحزانك ومن آلامك، ويملأ عليك فراغك، ولكن هذا الشخص غير موجود.

ليــس كل ما نتمناه ندركــه، أنها الآن تمارس الحب مــع زوجها، وأنا أتعذب لغيابها، أني أســير تلك المرأة حقًا، كل ما أفعله وهي بعيدة عني هــو أن أتخيل أنهــا أمامي، وأتحدث إلى طيفهــا، وأخبرها كم أحبها وكم أفتقدها.

وبينما أنا أتذكر ريحانة وأشــتاق إليهــا، أصبح الحلم حقيقة، وعادت وكانت تبكي وقالت لي:

- لم أســتطع، أحبك حتى النخاع، أن ما بيننا إحساس أقوى من الحب والعشــق والحاجة والرغبة والاعتياد، ولو أحدنا فقد الآخر سيفقد الرغبة في الحياة، وستظُلم كل أيام حياته مهما أشرقت الشمس أرجوك سامحني.

- أتعلمي لِمَ دائمًا أســامحك يا درة القلب؟ ليس لأن حبك أسر قلبي، فأنــا أقوى مما تتخيلي، أنــا فقد أخاف الفقد، حتــى أصبحت أخاف أن أتعلق بشيء.

ومــا الفقد إلا نوع من أنواع الحب والتعلق، أنا ســئمت من الرحيل وســئمت من البقــاء، لقد رحل أبي وأخــي وحبيبتي الســابقة، أنكِ من الأشــخاص أو ربما أنتِ الوحيدة التي أســتطيع أن أبكي أمامها، أنتِ من ســمحت لهــا أن تراني وأنا ضعيف، نحن طــوال الوقت يجب أن نجد في حياتنا أشــخاص نخبرهم أننا متعبون دون تجميل أو تشبيه، نحن بحاجة إلى مــن يتقبلنا كما نحن، بعيوبنا ولا يســخر منها، بــل يقدرها ويتقبل مميزاتنا ويجبر كسرنا ويرمم عظامنا، نحتاج طوال الوقت إلى من يشجعنا ويخبرنا أننا جملاء، ونحتاج إلى من لا يستنكر ضعفنا ويستصغر من حزننا على ما فقدنا.

أرجوكِ يا ريحانة كفانا خلافات وبعد ووجع، فلتكوني أنيستِ وراحتي ومأمني.

سـارة

حان وقت الرحيل ولكني لم أسـتعد لذلك، كيف أستعد أو أبكي على شيء لم أتوقـع فقدانـه؟ لم يودعنـي ولم أكن لأقبـل توديعه فقط تكفل الرحيل بقتلي.

عندما نفقد شـخص عزيـز علينا لا نموت بعده كـما يقولون، ولكن تنقسـم محبته في قلبنا إلى جزئين، هناك جزء صغير يموت ولا يحل مكانه إلا المبالاة، ويبقى الجزء الأكبر حي، لكي نتذكر هذا الشـخص وندعي له، وهذا الجزء هو ما يؤلمنا ويعذبنا.

طالت الأيام على غيـاب المنصور، إلى أن أعلنوا عن تقلد ابنه الحكم، ولكني لن أياس وسأنتظر.

النهايــة

أشارت أصابع الاتهام إلى كثير من الناس المشتركين في مقتل الحاكم مثل:

- رجال الدولة المنحرفين الذين قتل أغلبهم.
- ومن أهل الســنة الحاقدين الذين يكرهون الفاطميين، فكانوا يســبونه هو وأهل بيته في المساجد.
- ومن القبط الذين كرهوه لما فعله بهم.
- المذهب الشيعي نفسه الذي رفض دعوته إلى المذهب الجديد.
- ومن شعوب مملكته من العرب والفرس والترك والبربر.
- وحتى من أهل بيته الذين لم تعجبهم تصرفاته.

بلغ عدد من قتلهم الحاكم حوالي عشرة آلاف إنســان مما جعله من أعجب شخصية استطاعت إثارة الأساطير.

ويشــهد الكثير من المؤرخين أن الحاكم لم تمتد يده إلى أخذ مال أحد إطلاقًا، هناك طائفة من الشــيعة ترى أن الحاكم لم يقتل، وإنما ذهب في غيبة أبدية، وأنه سيعود مرة أخرى مثل محمد بن إسماعيل الذي اختفى وظهر أو مثل المعز جد الحاكم الذي اختفى في السرداب عامًا كاملًا.

ســت المُلك لم تقتــل الحاكم وهذا مــا أكده المقريــزي، لأنه بخلاف الخلافات التي كانت بينهم إلا أنه أعاد لها قصر أبيها، الذي كان قد أخذه

منها وكانت تعيش في رغد وسـلام أيام خلافة أخوها، فسـكنت في القصر الغـربي الذي أهداهـا أباها لها، يخدمها أربعـة آلاف جارية غير الأموال والجواهـر وطائفة بأكملها لحراسـتها، إلى جانب أنهـا لم تكن في مرحلة شـباب، فكانت وقت اختفاء الحاكم اثنين وخمسـين عامًا، وتوفت بعده بثلاثة أعوام، كما كانت بشـاهدة أغلب الخلق عطوفة على أخيها، وقلقه طوال الوقت عليه، وأوقات مرضه وحزنه كانت تحاول أن تهون عليه، إلى جانـب تصرفها بعد اختفاء أخيها يدل على أنها لم تخطط لقتله، فهي من جعلت الظاهر يتولى الحكم بعد اختفائه.

وأخيرًا.

ينقل المقريزي عن المؤرخ المسبحي المعاصر للحاكم، أنه تم القبض على رجل من بني حسين في الصعيد، اعترف أنه قتل الحاكم وأظهر قطعة جلد من رأس الحاكم، وقطعة من العمامة التي كانت عليه، ودار الحوار التالي بين القاتل والحرس:

- لما قتلته؟

- غيرة لله وللإسلام.

-كيف قتلته؟

-أخرج سكينًا ولكنه ضرب بها فؤاده وقتل نفسه.

وقد كان اختفاء الحاكم لليلتين في شوال سنه ٤١١ هجريًا، والثلاثاء الموافق يوم ١٠٢١/٢/١٣ميلاديًا، وكان عمره وقتها سبعة وثلاثين عامًا، وأمضى في الخلافة خمسة وعشرين عامًا واثنين وستين يومًا.

تمت

المراجع

١- الحاكم بأمر الله الخليفة المفتري عليه تأليف: د/عبد المنعم ماجد
٢- الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية تأليف: محمد عبد الله
٣- الحاكم بأمر الله تأليف: نوال السعداوي

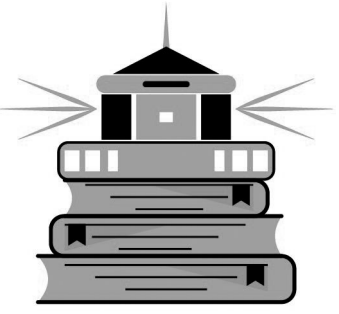

منشورات الفنار

ترحب منشورات الفنار دائمًا بآراء، ومُقترحات قرائها الأعزَّاء، وتدعوهم دومًا لإفادتنا بملاحظاتهم لتطوير منتجها الثقافي على الدوام

راسلونا عبر بريدنا الالكتروني

elfnaar@gmail.com